روايات مصرية للجيب

الكتاب السادس عشر

كوكتيل ٢٠٠٠



ثقافة الغد .. لشباب اليوم

المهمة

وقصص أخرى

د. نبيل فاروق

Looloo
www.dvd4arab.com

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

- مع بدء العـد التنـازلى ، نحو القـرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيـل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضـارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليوم

د. نبيل فاروق

ريان يافجل

(قصة قصيرة)



.. (صبرى) !.. غير معقول !

رفع (صبرى) عينيه ، يتطلّع فى دهشة إلى ذلك الرجل ، الذى أطلق الصيحة باللغة العربية ، فى قلب (نيويورك) ، وخيّل إليه لحظات أنه يشاهد وجهًا أمريكيًا ، بذلك الشعر الأسود الناعم ، والعينين الزرقاوين ، والقامة الفارهة ، ثم لم يلبث أن استوعب الوجه وصاحبه ، وهتف بدوره :

- (فوزى) .. يا لها من مصادفة !

اندفعا يتصافحان فى حرارة ، وسط الشارع المزدحم ، وانطلق نفير السيارات الغاضبة ، فجذبه (فوزى) إلى الإفريز المقابل ، وهو يقول :

ـ عامان كاملان لم أرك فيهما فى (مصر) ، ثم نلتقى هنا فى (نيويورك) !.. يا لها من مصادفة بالفعل !.. كيف حالك يا رجل ؟

لم يجب (صبرى) ، وهو يتطلع إليه ، واكتفى بابتسامة باهتة ، وعقله يسترجع فجأة تلك الذكريات ، التى لم تفارق ذهنه قط ، طوال عامين كاملين ، قضاهما هنا فى الغربة ، يجتر الأحزان والنكسات والهزائم ، ويقاتل بيديه وأسنانه ؛ ليحيا وسط المجتمع الأمريكى ، فى قلب (نيويورك) ، حيث يحيا الأمريكيون أنفسهم فى معركة طاحنة لا تنتهى ، للحصول على لقمة العيش ..

تذكَّر تلك المسابقة ، التى كانت بداية كل شىء ..

كان يسعى للحصول على تأشيرة السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، عندما قرأ الخبر فى صحيفة يومية واسعة الانتشار ..

خبر إقامة مسابقة أدبية كبرى ، للأقلام الشابة ، والعقول الجديدة ، مع تأكيد من أحد المسئولين الكبار بالحياد التام فى التحكيم ، وفى اختيار الفائزين ..

ومع الخبر نسى السفر والتأشيرة ..

بل ونسى أن خريطة العالم تحوى قارة تحمل اسم (أمريكا) ..

كان هذا حلم حياته ..

أن يصبح أديبًا ..

وبكل الحماس والهمة ، راح يبحث عن فكرة جديدة ، تصلح كقصة صغيرة ، أو رواية متوسطة ، يضع بها اسمه بين أسماء المتسابقين ، عسى أن يفوز بالجائزة ، ويلمع اسمه فى عالم الأدب ، و ...

ولم يكتمل الحلم ..

فى الصباح التالى فحسب قرأ خبرًا آخر ، يقول : إن الأديب الكبير (فلان الفلانى) ، سيشترك فى المسابقة الأدبية ..

وامتلأت نفسه بالحنق ، والسخط ، والحقد ، والمرارة ..

لماذا يُقحم الأديب الكبير نفسه فى مسابقة كهذه ؟!..

إنه لا يحتاج ، أو لم يعد يحتاج إلى الشهرة أو الثراء أو إثبات الذات ..

لقد بلغ تلك المكانة ، التى تؤهله للفوز بالمسابقة ، اعتمادًا على اسمه وسمعته فحسب ..

حتى لو كانت روايته هى (ريَّان يا فجل)(*) ..

إنه سيربح المسابقة حتمًا ..



سيضيع الفرصة عليه ، وعلى أمثاله من الشبَّان ، الذين يحلمون بدخول عالم الأدب والشهرة ، ولو من أبوابه الخلفية والضيقة ..

ومع حنقه وانفعاله ، أمسك أوراقه وأقلامه ، وراح يكتب قصة قصيرة عن كاتب كبير ، أصرَّ على أن يقف دائمًا حجرة عثرة ، فى طريق المواهب الشابة الجديدة ..

(*) ريَّان يا فجل : مصطلح يستخدمه العامة فى (مصر) ، للدلالة على سخافة أو تفاهة أى عمل .

وكتب .. وكتب .. وكتب ..

كل مشاعره نقلها إلى الأوراق ..

كل انفعالاته تركها تتدفق عبر قلمه ، حتى فرغ ..

وفى الصباح الثالث ، وصلته موافقة السفارة ، وتأشيرة السفر ، فأرسل قصته بالبريد، وأنهى إجراءاته ، وقرّر أن يترك (مصر) إلى الأبد ..

وبعد أسبوع واحد كان فى قلب (نيويورك) ..

وهناك بدأت المتاعب الحقيقية ..

نام طويلًا على الأرصفة ..

أكل بقايا الأطعمة ..

نخر البرد عظامه كلها عظمة عظمة ..

ومرة واحدة تعرّض لمحاولة سرقة ، ولكن السارق لم يجد لديه ما يستحق ، فمنحه دولارًا ، وانصرف عنه إلى ضحية أخرى ..

ثم عثر على عمل ..

كان يجمع القمامة من منتصف الليل إلى الصباح التالى ، ثم ينام فى مخزن قديم ، من الصباح إلى المساء ، ليبدأ دورة البحث والعمل من جديد ..

وطوال عامين كاملين ، راح يتنقّل من مهنة إلى أخرى أكثر سخافة ، حتى استقرّ به الحال أخيرًا فى محطة بنزين كبيرة ، حيث يعمل ..

كان أجره يكفيه بالكاد ، ولكنه لا يستطيع التخلّى عنه ، حتى يجد عملًا أفضل ..

وطوال العامين قطع كل صلة له بـ(مصر) ..

لم يحاول حتى الاختلاط بالمصريين ..

كان ينسلخ من جلده كله ..

من انتمائه ..

من ذكرياته ..

ولكن ها هو ذا (فوزى) صديق الجامعة يظهر فجأة ، ويعيد إليه ذكرياته كلها ..

«أين أنت الآن ؟» .

انتزعه (فوزى) من ذكرياته بالسؤال ، فالتفت إليه بنفس النظرة الخاوية ، وهو يجيب :

ـ هنا .. أعمل فى محطة بنزين .

هتف (فوزى) :

ـ محطة بنزين ؟!.. من يصدّق هذا ؟!.. (صبرى علوان) يعمل فى محطة بنزين ؟!.. يا لسخرية القدر !

قال فى عصبية :

ـ أية سخرية ؟.. أنت تعلم أن مؤهّلنا غير مطلوب هنا ، ولا يمكننا معادلته ، ولم أكن ناجحًا فى (مصر) ، و ...

قاطعه (فوزى) :

ـ أنت ؟!.. أنت لم تكن ناجحًا ؟!.. كيف يا رجل ؟!.. ألم تطالع صحيفة مصرية واحدة منذ عامين ؟.

حدّق (صبرى) فى وجهه بدهشة ، وقال :

ـ ماذا تعنى ؟

هتف (فوزى) :

ـ لقد ظلت الصحف تكتب عنك يوميًا ، طوال شهر كامل ، وكل صحفى فى (مصر) يبحث عنك ، والجميع يقولون أنك موهبة خارقة .

قال ذاهلًا :

ـ أنا ؟!.. أنا يبحث عنى الجميع ؟

زفر (فوزى) فى أسف ، وقال :

ـ كان هذا منذ عامين ، أما الآن فلم يعد هناك من يذكرك .. ياللخسارة !.. كانت فرصة عمرك يا(صبرى) .

سأله وهو يكاد يسقط أمامه :

ـ لماذا ؟.. ماذا حدث بالضبط ؟

ضرب (فوزى) كفًا بكف ، وهو يقول :

ـ أتعنى أنك حتى لم تعرف !.. يا للعجب !

ثم مال نحوه ، مستطردًا فى عمق :

ـ لقد فزت يا رجل .. فزت فى مسابقة القصة القصيرة ، وفجّرت قصتك (ريّان يا فجل) حماس النقّاد والكتّاب .. فزت حتى على الكاتب الكبير نفسه .

وسقط فكه السفلى فى ذهول ..

وهوى قلبه بين قدميه ..

إذن فقد أتت الفرصة ..

وذهبت ..

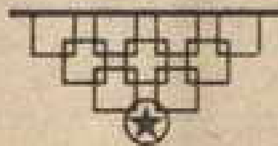
ولأوّل مرة ، منذ وصل إلى (نيويورك) ، شعر (صبرى) بوحدة عجيبة ، وبأن ناطحات السحاب الشهيرة تزداد ارتفاعًا ، وهو يزداد بينها ضآلة وانكماشًا ..

وأخذ (فوزى) يتحدث ، ويتحدث ، ولكن (صبرى) لم يعد يسمعه ..

لقد ابتلعته المدينة المزدحمة ..

وسحقته الوحدة ، وهو يصرخ فى أعماقه ..

ريّان .. ريّان يا فجل .



اختبر معلوماتك



مرة أخرى نلتقى ..

ومرة أخرى نتسابق ..

وكان من الضرورى ان يعود (اختبر معلوماتك) ؛ فالدنيا كلها أصبحت الآن حلبة سباق كبرى .. للسعى خلف المعلومات والثقافة .

واصبح من الضرورى لمن يرغب فى اللحاق بركب العصر أن يشترك فى سباق المعلومات ، وأن يلقى على نفسه ـ فى كل يوم ـ السؤال ذاته .. الذى يحتل دائما مكانا واضحا ، فى هذا الباب ..

هل أنت مثقف ؟..

* * *

١ ـ أحد أطباء (دمشق) المشاهير ، وأول من توصل إلى الدورة الدموية الرئوية ، ووصفها وصفا علميًا صحيحا ، وله عدة كتب وأبحاث طبية ، وهو فى الوقت نفسه واحد من أعظم من درسوا علم التشريح ، وأضافوا إليه ، وله مؤلف طبى شهير ، يعرف باسم (الشامل) ، وهذا الشخص هو :

□ ابن منظور .　　□ ابن النفيس .　　□ ابن ماجد .

٢ ـ وسيلة لنقل الصور والرسوم ، بالوسائل السلكية واللاسلكية ، عن طريق تعريض السطح المطلوب نقل صورته إلى شعاع ضوئى ، يمسح كل أجزائه ، ثم ينتقل بتيار متغير الشدة ، عبر خلايا ضوئية ، إلى محطة استقبال ، تقوم بعملية عكسية ، وتعرف هذه الوسيلة باسم :

□ الفاكسميلى .　　□ التلغراف .　　□ التلكس .

٣ ـ سفينة فضاء أمريكية ، هبطت على سطح القمر فى ٢٠ يوليو ١٩٦٩م ، ونزل منها أول إنسان يطأ القمر بقدمه ، وهو رائد الفضاء (نيل أرمسترونج) ، الذى هبط على سطح القمر فى سفينة فضائية تعرف بـ (النسر) ، من جزء يحمل اسم (كولومبيا) . أما السفينة بأكملها فتحمل اسم :

□ لونا ـ ٧ .　　□ ساتيرن ـ ٣ .　　□ أبوللو ـ ١١ .

٤ ـ هى الوحدات الأساسية لانتقال الصفات الوراثية ، فى الكائنات الحية ، ويطلق عليها اسم (المورثات) ، وهى موجودة فى الصبغيات ، وتتحكم فى انتقال الصفات الوراثية من جيل إلى جيل ، وتعرف علميًا باسم :

□ الخلايا .　　□ الجينات .　　□ الأوعية .

٥ ـ مدينة على ضفاف (الدانوب) ، كانت أكبر سوق للحبوب فى (أوروبا) ، حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى ، واشتهرت بنشاطها المسرحى والأدبى والموسيقى ، وبمياهها المعدنية ، وآثارها التاريخية ، وهذه المدينة هى :

□ بودابست .　　□ روما .　　□ برلين .

٦ ـ أديب ولد بـ(جور) فى (فارس) ، ونشأ ومات فى (البصرة) .. أسلم على يد العباسيين ، وكتب لهم ، وتعصّب بشدة لحضارة قومه ، ونقل العديد من الكتب الفارسية إلى العربية ، وأهمها (الأدب الكبير) ، و(الأدب الصغير) ، و(كليلة ودمنة) ، وهذا الأديب هو :

□ ابن خلدون . □ ابن سينا . □ ابن المقفع .

٧ ـ العصامى هو الرجل الذى نجح فى حياته ، دون الاعتماد على الوساطات أو التأييد المادى ، وهناك كلمة تشير إلى عكس هذا .. إلى الشخص الذى يعتمد على الوساطة والمحسوبية ، ولا يمكن النجاح دون هذا ، وهذه الكلمة هى :

□ عظامى . □ انتهازى . □ أنانى .

٨ ـ اضطراب جوى محلّى عنيف ، يصحبه برق ورعد وأمطار غزيرة ، وهبّات رياح شديدة ، وينشأ عن عدم استقرار الجو ، وتتولد فيه شحنات كهربية ، يصحبها تفريغ كهربى شديد ، وأضواء قوية فى السماء ، وهذا الاضطراب يعرف باسم :

□ الإعصار . □ العاصفة . □ الزلزال

٩ ـ علم يختصّ بدراسة أصل الأرض ، وتاريخ تطوّرها ، والأحداث التى مرّت بها ، وطبيعتها الكيميائية والفيزيقية ، ودراسة السكان وتطوّر الحياة ، والحقبات التاريخية ، ويهتم بدراسة علم الصخور والمعادن وتصنيفهما ، وعلم طبقات الأرض والحفريات ، والتاريخ القديم ، وهذا العلم هو :

□ الأنثروبولوجيا . □ الفسيولوجيا . □ الجيولوجيا .

١٠ ـ بدأت الألعاب الأوليمبية القديمة عام ٧٧٦ ق.م ، واستمرت تقام كل أربع سنوات فى (اليونان) ، حتى أوقفها الرومان فى القرن الرابع الميلادى ، واستمرّ توقّفها قرونا عديدة ، حتى نجح فرنسى فى إحياء الألعاب الأوليمبية الحديثة ، التى بدأت فى (أثينا) ، عام ١٨٩٦م ، واستمرت تقام كل أربع سنوات ، فيما عدا سنوات الحرب العالمية الثانية ، وهذا الفرنسى هو :

□ جان لوى ترنتنيان . □ بيير دى كوبرتان . □ شارلز لوبان .

١١ ـ رابع الخلفاء الراشدين ، وابن عم النبى (ﷺ) ، وزوج ابنته (فاطمة) .. آمن برسالة النبى (ﷺ) ، وهو فى العاشرة من عمره ، ونام فى فراشه عند الهجرة ، وشهد جميع الغزوات ، فيما عدا غزوة (تبوك) ، واشتهر بشجاعته وحكمته ، وكان أوّل المبارزين فى غزوة (بدر) ، وهو :

□ خالد بن الوليد . □ عمر بن الخطاب . □ على بن أبى طالب .

١٢ ـ ممثل مصرى قديم ، من أقدر ممثلى الكوميديا ، الذين اعتلوا خشبة المسرح العربى ، خلال النصف الأوّل من القرن العشرين .. اتخذ التمثيل هواية منذ الصغر ، ثم كوّن فرقة مسرحية مع (عزيز عيد) ، وابتكر شخصية (كشكش بك) ، ثم كوّن مع (بديع خيرى) فرقة جديدة ، قدّمت أنجح مسرحياته ، ثم انتقل إلى عالم السينما ، لتتميّز أفلامه بالنقد الاجتماعى اللاذع ، وهذا الممثل هو :

□ نجيب الريحانى . □ بشارة واكيم . □ اسماعيل ياسين .

١٣ ـ مفكّر وكاتب وشاعر عربى ، ولد فى (أسوان) ، وعمل فى

وظيفة كتابية ، بعد حصوله على الشهادة الابتدائية ، ثم تركها ليعمل بالصحافة ، وأقبل على تثقيف نفسه بنفسه ، وأصدر عددًا من المجموعات الشعرية ، وعددًا من الدراسات ، أهمها ما يعرف باسم العبقريات ، وله رواية واحدة ، وهى (سارة) ، وهذا المفكّر هو :

□ توفيق الحكيم . □ طه حسين . □ عباس العقاد .

١٤ ـ علم يدرس الأدوية والعقاقير ، وتأثيرها على أجزاء وأجهزة الجسم المختلفة ، وتركيبها وأصولها النباتية أو الكيميائية ، ويهتمّ بالآثار الجانبية لتناولها بجرعات عادية ، وآثار التسمم التى تنشأ من تناولها بجرعات زائدة ، وهذا العلم هو :

□ الباثولوجيا . □ الفارماكولوجيا . □ الإمبريولوجيا .

١٥ ـ الحرب العالمية الثانية من أبشع الحروب التى عرفتها البشرية ، راح ضحيتها الملايين من البشر ، من مختلف الجنسيات ، وبدأها (أدولف هتلر) ، عندما اتسعت أطماعه لتشمل (أوروبا) كلها ، والعالم فيما بعد ، ولم تنته إلا عندما ألقى الأمريكيون قنبلتهم الذرية الأولى على (هيروشيما) ، وتاريخ بداية هذه الحرب هو :

□ ١٩١٤م . □ ١٩٣٩م . □ ١٩٤٥م.

١٦ ـ لغوى ومؤرخ ولد ومات بـ(مصر) ، وخدم بديوان الإنشاءات ، وله شعر ورسائل اشتهرت فى عالم الأدب والفكر ، كما لخّص العديد من الكتب الضخمة ، مثل (الأغانى للأصفهانى) ،

و(العقد الفريد) ، و(تاريخ دمشق) ، و(الحيوان) ، ولكن أعظم أعماله على الإطلاق معجم لغوى شهير ، يعدّ واحدًا من أفضل مراجع اللغة العربية ، وهو (لسان العرب) ، وهذا اللغوى هو :

□ ابن شهاب الدين . □ سيبويه . □ ابن منظور .

١٧ ـ فيزيائى بريطانى ، من أعظم علماء القرن الثامن عشر فى الرياضيات والفيزياء ، استطاع بتجاربه على الضوء تحليل الضوء العادى إلى ألوان الطيف السبعة ، بوساطة منشور زجاجى ، واخترع (التليسكوب) العاكس ، كما وضع قوانين الجاذبية ، التى عرفت باسمه حتى الآن ، وقوانين الحركة ، ويعتبره البعض مؤسس العلوم الحديثة ، وهذا الفيزيائى هو :

□ توماس أديسون . □ لويجى فلجانى . □ إسحق نيوتن .

١٨ ـ إحدى مسابقات ألعاب القوى ، يحاول اللاعب فيها قذف كرة نحاسية أو حديدية ، يبلغ وزنها $٧\frac{١}{٤}$ كيلوجرام للرجال ، وأربعة كيلوجرامات للنساء ، من داخل دائرة قطرها ٢,١٣٥م^٢ ، لأبعد مسافة ممكنة ، بحيث تسقط داخل قطاع زاويته ٦٥° ، ولكل متسابق ثلاث محاولات ، وهذه المسابقة هى :

□ قذف الجلّة . □ رمى القرص . □ الكروكيت .

١٩ ـ هو أقرب نجم للقطب الشمالى ، وألمع نجوم كوكبة الدب الأصغر ، فى نهايته ذيل واضح ، وله فوائد معروفة للملاحة ؛ إذ تسترشد به السفن ، فى الليالى الخالية من الغيوم ، وهو أوّل نجم

يظهر فى السماء بعد الغروب ، ويعرف أحيانا باسم (النجم الشمالى) ، وأحيانا أخرى (بولاريس) ، وهذا النجم هو :

□ نجم البحر . □ النجم القطبى . □ مذنب هالى .

٢٠ ـ مدينة يابانية ، بها دور لصناعة السفن ومصايد الأسماك ، وتعتبر أوّل ميناء يابانى استقبل التجارة الغربية ، واستخدمها الهولنديون كسوق تجارى عام ١٥٦٨ م ، ثم الأمريكيون عام ١٨٥٤ م ، وفى التاسع من أغسطس ، عام ١٩٤٥ م ، ألقى عليها الأمريكيون قنبلتهم الذرية الثانية ، التى قتلت ثلاثة أرباع مليون نسمة ، وهذه المدينة هى :

□ طوكيو . □ هيروشيما . □ ناجازاكى .

والآن ، وبعد أن اجبت هذه الأسئلة ، ارجع إلى الأجوبة الصحيحة ، فى نهاية الكتاب ، لتعرف جواب السؤال :

هل أنت مثقف ؟.

كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

قصة كاملة

الحجرة

الناشر

المؤسسة العربية الحديثة

للطبع والنشر والتوزيع

١ ـ دعوة ..

عبرت السيارة الفارهة ذلك الشارع المقفر ، الممتد وسط رمال الصحراء ، فى نهاية المنطقة المأهولة من (مدينة نصر) ، واتجهت بسرعة كبيرة نسبيًا نحو منزل من طابقين ، يبدو عجيبًا مثيرًا للدهشة ، بشكله الأنيق وحديقته الصغيرة ، التى أينعت فيها مختلف الورود والأزهار ، وسط الرمال ، والمنطقة التى تستعد للانضمام إلى المدينة والعمران ، بعد أن وصلها التيار الكهربى حديثًا ..

وعندما بلغت السيارة ذلك المنزل ، الشبيه بڤيلا صغيرة ، اتخذت مكانها وسط ثلاث سيارات أخرى ، لا تقل عنها حجمًا وفخامة ، وغادرها سائقها فى توتر ملحوظ ، وعدّل رباط عنقه فى عصبية ، وهو يقول :

ـ ألم يجد (فائق) مكانًا يدعونا إليه ، أفضل من هذا ؟

زفر محاولًا التغلب على عصبيته وتوتره ، وتطلّع إلى الڤيلا الصغيرة ، وإلى بابها المفتوح ، والضوء الساطع فى نوافذها ، وراودته فكرة العودة من حيث أتى ، مع تلك الرهبة التى ملأت نفسه ، ولكن ذهنه لم يلبث أن استرجع كلمات (فائق) :

ـ لابد أن تأتى يا (وصفى) .. سيكون الآخرون جميعًا هناك .. صدقنى الأمر بالغ الأهمية .. إنه يتعلّق بالحادث .

قالها وأنهى الاتصال ، دون أن يمنحه فرصة سؤاله عما يعنيه ..

وكان لابد أن يأتى ..

إنه يعرف (فائق) ، كما يعرفه الآخرون ، وهذا ليس بالأحمق أو المتهوّر ، أو الرجل الذى يجشم الآخرين المشاق ، دون سبب قوى بالغ الأهمية ..

ثم أنه يخشى أن تحيط به الشبهات ، لو لم يأت ..

من المحتمل أن (فائق) يدعوهم جميعًا إلى الڤيلا ، التى لقيت فيها (منيرة) مصرعها ، حتى يرى من منهم سيخشى العودة إلى مسرح الجريمة ..

ربما كان هذا هو السبب ..

التقط نفسًا عميقًا ، واتجه إلى الباب المفتوح ، وأدهشته تلك الظلمة فى مدخل الڤيلا ، على الرغم من الضوء الساطع من الحجرات الأخرى ، ولكنه ضغط جرس الباب ، وانتظر لحظات ، حتى سمع صوتًا يقول :

ـ أهو أنت يا (فائق) ؟!

انتفض جسده بلا مبرّر ، مع سماع الصوت ، وتطلّع إلى وجه الرجل ، الذى أطلّ من الباب المفتوح ، وقال بصوت مبحوح :

ـ (سمير) ؟!.. أهو أنت ؟!

أفسح له (سمير) الطريق ، وهو يقول :

ـ نعم .. هو أنا .. لست أدرى أين ذهب (فائق) .. لقد حضرنا ووجدنا الباب مفتوحًا كما ترى ، ولم نجد (فائق) .

قال (وصفى) فى عصبية ، وهو يجتاز الباب :

ـ ماذا تعنى بأنكم لم تجدوه ؟

هزَّ (سمير) كتفيه ، وقال فى بساطة :

- هذا ما حدث .. لعله هنا فى الجوار .

قال (وصفى) فى حدة :

- أية جوار ؟!

ابتسم (سمير) ، وقال :

- أنت تعرف (فائق) .. لا يمكنك أبدًا استنتاج ما يدور بذهنه .

قالها وهو يقوده إلى حجرة جانبية ، جلس داخلها (حليم) و(خيرت) ، اللذان نهضا لمصافحة (وصفى) ، وملامحهما تعكس توترًا مماثلًا ، فصافحهما (وصفى) بسرعة ، وقال :

- إذن فلست المدعو الوحيد الليلة .

قال (حليم) :

- من الواضح أن (فائق) دعانا نحن الأربعة بالذات ، وهذا يعنى أنك الأخير .

تمتم (خيرت) :

- بل ما زلنا فى انتظار وصول (فائق) .

هزَّ (وصفى) رأسه ، محاولًا التظاهر بفهم وتقدير الأمر ، واتخذ لنفسه مجلسًا يواجه زميليه ، ويجاور (سمير) ، وألقى نظرة طويلة على الحجرة ، ذات الجدران الرمادية ، الخالية من النوافذ ، والتى بدت له أشبه بسجن كئيب ، جعله يقول فى حدة :

- لماذا اخترتم هذه الحجرة بالذات ، ما دام (فائق) ليس هنا .. لست أذكر أننى رأيتها من قبل .

أجابه (سمير) :

- إنها الحجرة الوحيدة الصالحة للجلوس هنا ، فضوء الردهة تالف ، والحجرات الأخرى مغلقة .

لم يجد (وصفى) ما يقول ، فتمتم :

- يا للسخافة !

مضت لحظات لم ينبس أحدهم فيها بحرف واحد ، فران على الحجرة صمت رهيب ، زاد من ثقل ورهبة الموقف ، حتى قطعه (حليم) ، قائلًا :

- هل يعلم أحدكم لماذا دعانا (فائق) إلى هنا ؟

مضت لحظة أخرى من الصمت ، قبل أن يقول (خيرت) :

- فى محادثته الهاتفية لى قال : إنه يدعونا بشأن الحادث .. من المؤكد أنه يقصد قضية مقتل زوجته (منيرة) .

قال (سمير) فى تعاطف واضح :

- لقد عانى (فائق) الكثير ، منذ مصرع (منيرة) ، فلقد اتهمه رجال الشرطة بقتلها ، ولم ينقذه من هذا سوى وجوده فى مكتبه بالشركة ، مع أحد العملاء القدامى ، فى الوقت الذى قُتلت فيه .

غمغم (وصفى) :

- كلنا نعلم هذا .

اعتدل (حليم) وقال :

- ولكن من قتلها إذن ؟

أجابه (خيرت) :

- ربما كان لصًا ، حاول سرقة الفيلا ، ولما فاجأته (منيرة) ، أطلق النار عليها ، ثم لاذ بالفرار .

هزَّ (سمير) كتفيه ، وقال :

ـ من يدرى ؟.. ربّما .

عاد الصمت يخيِّم على الحجرة مرة أخرى ، والجميع يديرون عيونهم فيها بقلق ، ثم قال (خيرت) فى حدة :

ـ هل سنبقى هنا إلى الأبد ؟.. أين (فائق) هذا ؟

انتفض جسده فجأة ، عندما سمع صوتًا هادئًا رخيمًا يقول :

ـ هأنذا .

التفتت إليه أعين الجميع فى حركة حادة ، وهو يقف عند باب الحجرة ، وقال (حليم) فى حدة :

ـ ما هذا الأسلوب ؟

أدار (فائق) عينيه إليه فى بطء ، وقال فى برود عجيب :

ـ أى أسلوب ؟

لم يجب (حليم) ، ولم ينبس أى من الحاضرين بحرف واحد ، فتطلّع إليهم (فائق) بنفس البطء المخيف المثير ، وهو يتقدّم داخل الحجرة ، قائلًا :

ـ إذن فكلكم هنا .

لم يرتح أحدهم لأسلوبه ، وهو ينطق العبارة ، التى بدت لهم أشبه بضحكة ساخرة متشفية ، أطلقت قلقهم من عقاله ، وفجّرت خوفهم فى أعماقهم ، وبدا هذا واضحًا فى صوت (سمير) ، وهو يقول :

ـ (فائق) .. قلقنا كثيرًا بشأنك ، عندما حضرنا فلم نجدك .

تألّقت عينا (فائق) على نحو مخيف ، وهو يتخذ مقعدًا قريبًا من مدخل الحجرة ، ويقول فى بطء :

ـ حقًّا ؟!

تبادلوا نظرات قلقة متوترة ، قبل أن يقول (وصفى) فى عصبية :

ـ حسن .. لماذا دعوتنا إلى هنا ؟

أجابه (فائق) بسرعة ، وكأنه كان ينتظر السؤال :

ـ من أجل الحادث .

قال (حليم) :

ـ أى حادث ؟

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن يجيب (فائق) فى صرامة :

ـ حادث (منيرة) .. هل نسيتموه بهذه السرعة ؟

تبادلوا نظرات أكثر قلقًا ، وقال (خيرت) :

ـ لا يا (فائق) .. لا يمكننا أن ننسى الحادث ، فـ(منيرة) لم تكن زوجتك فحسب ، بل كانت صاحبة ومديرة الشركة ، التى تعمل بها كلنا ، ومصرعها المباغت هذا كان مربكًا لعملنا كله ، وأنت تعلم مثلنا أن اعتيادنا العمل بدونها سيحتاج إلى وقت طويل .

ارتسمت على شفتيه ابتسامة لم ترق لأى منهم ، وهو يسترخى فى مقعده ، ويقول :

ـ عظيم .. هل يعلم أحدكم إذن كيف لقيت (منيرة) مصرعها ؟

أجابه (وصفى) فى عصبية :

ـ بالطبع يا (فائق) .. الشرطة قالت أن لصًّا تسلّل إلى..

قاطعة (فائق) فى صرامة :

ـ لست أقصد هذا .

سأله (حليم) :

ـ ماذا تقصد إذن ؟

ازداد (فائق) استرخاءً فى مقعده ، وهو يقول :

ـ أقصد الحقيقة .. حقيقة مصرع (منيرة) .

تبادلوا نظرة أقرب ما يكون إلى الهلع هذه المرة ، قبل أن يقول (خيرت) :

ـ (فائق) .. إننا لا نفهمك .

ابتسم (فائق) تلك الابتسامة ، التى لا تروق لأحد ، وقال :

ـ ستفهمنى يا رجل .. ستفهموننى جميعًا .

ثم اعتدل فى مقعده بغتة ، وهو يضيف فى صرامة :

ـ (منيرة) لم يقتلها لص .. لقد قتلها شخص تعرفونه .

وأطل من عينيه غضب هائل ، وهو يضيف :

ـ شخص يجلس هنا . بيننا .

ومع آخر حروف الكلمة ، ضرب مسند المقعد فى عنف ، فهوى حاجز معدنى فجأة ، ليغلق باب الحجرة تمامًا ، بدوى هائل مخيف ..

وهوت القلوب بين الأقدام ..

★ ★ ★

٢ ـ القفص ..

هبَّ الجميع من مقاعدهم ، فور سقوط الحاجز المعدنى ، وصاح (وصفى) بعصبية فائقة :

ـ أى عبث هذا ، ما الذى تفعله أيها المجنون ؟

التقى حاجبا (فائق) على نحو مخيف ، وهو يقول :

ـ اجلسوا ..

صاح به (حليم) :

ـ لن نجلس .. إنك لم تعد طبيعيًا .. دعنا نخرج من هنا .

قالها وتحرَّك فى حدة نحو الحاجز المعدنى ، الذى احتلَّ موقع الباب ، ولكن (فائق) انتزع من جيبه فجأة مسدسًا ، صوبه إلى الجميع ، وهو يهتف فى صرامة مخيفة غاضبة :

ـ قلت اجلسوا .

تراجع (حليم) كالمصعوق ، وأطلق (سمير) شهقة قوية ، فى حين سقط (وصفى) على مقعده شاحب الوجه ، وهتف (خيرت) بصوت مختنق :

ـ ما هذا يا (فائق) ؟

صاح (فائق) مكررًا :

ـ قلت : اجلسوا .

أسرع الجميع يطيعونه ، وقد بدا لهم أشبه برجل مجنون ، فقد السيطرة على عقله وتفكيره ، ولوَّح (سمير) بيده ، قائلًا :

- اهدأ يا (فائق) .. اهدأ .. لقد جلسنا جميعًا .. لا داعى لهذا المسدس .

أجاب (فائق) :

- بل هناك داع ضخم له يا عزيزى ، فكما أخبرتكم من قبل .. قاتل (منيرة) .. هو أحدكم .

سأله (خيرت) فى توتر :

- من أين جئت بهذه الفكرة السخيفة ؟

برقت عينا (فائق) ، وهو يقول :

- من (منيرة) نفسها .

اتسعت عيونهم فى دهشة ، وهو يستطرد :

- قبل مصرعها بثلاث ساعات ، تحدثت إلىّ هاتفيًا فى الشركة ، وأخبرتنى أن شكوكها كانت فى محلها ، وأن مراجعتها لبعض المستندات القديمة ، أثبتت لها أن أحد مديرى الشركة مختلس كبير ، يسرق الكثير من أموال الشركة ، منذ ما يقرب من عامين ، وللأسف لم أسألها عن هذا الشخص ، بل كنت مشغولًا مع أحد العملاء ، فأخبرتها أننى سأعود إلى المنزل مبكرًا ؛ لمناقشتها فى هذا الأمر ، وأخبرتنى هى أنها لن تحتمل الانتظار ، وستواجه المختلس مباشرة .

التقط نفسًا عميقًا ، وكأنه يحاول السيطرة على حزنه وتوتره ، ثم قال فى مرارة :

- لم أهتم كثيرًا بقولها ، على الرغم من خطورته ، ولست أدرى

لماذا ..؟! وقضيت ثلاث ساعات أخرى فى الشركة ، ثم عدت إلى المنزل ، لأجدها جثة هامدة .

ورفع عينيه إليهم فجأة ، مضيفًا فى حدة :

- وأستطيع الآن أن أتخيّل ما حدث .. لقد تحرّكت (منيرة) بسرعة وتهوّر كعادتها ، فاتصلت بالمختلس ، وأخبرته أنها كشفت أمره ، فأسرع إليها ، وحاول منعها من إبلاغ الشرطة بشأنه ، ولكنها رفضت بعنادها الشهير ، وقالت : إنها ستحطمه ، وتلقى به فى السجن ، فلم يكن منه إلا أن أطلق النار عليها ، وسرق المستندات التى تدينه ، وفرّ قبل عودتى .

ازدرد (حليم) لعابه فى صعوبة ، وقال :

- مستحيل أن يفعل أحدنا هذا يا (فائق) .. أنت تعرفنا جميعًا ، و ..

قاطعه (فائق) فى صرامة :

- أحدكم قتلها .

زفر (خيرت) فى حدة ، وقال :

- اسمع يا (فائق) .. لو أن لديك شكوكًا فى هذا الشأن فابلغ الشرطةَ ، ودعنا نخرج من هنا .

قال (فائق) فى حدة :

- ومن قال إننى لم أفعل ؟.. لقد أبلغت الشرطة بالفعل ، ولكنهم لم يجدوا دليلًا واحدًا يشير إلى الفاعل ، فلم يكن أمامهم سوى حفظ التحقيق فى الأمر ، ولكننى لن أسمح بهذا .. لقد لقيت (منيرة) مصرعها على يد أحدكم ، ولن يفلت من العقاب أبدًا .

قال (سمير) فى توتر :

ـ إنها مجرَّد شكوك يا (فائق) .

أجابه فى حزم :

ـ فليكن .. اعتبرنى مجنونًا سخيفًا ، ولكن أحدنا لن يغادر هذه الحجرة ، قبل أن يعترف القاتل بجريمته .

حلَّ (حليم) رباط عنقه ، وقال بصوت مختنق :

ـ لا .. أرجوك .. سألقى مصرعى حتمًا ، لو بقيت هنا طويلًا .. إننى مصاب بحالة (كلوستوفوبيا)(*) .

ابتسم (فائق) فى سخرية ، وهو يقول :

ـ ستنهار سريعًا إذن يا عزيزى (حليم) ، فالحجرة لن تبقى على حالها طويلًا ، بل ستبدأ فى الانكماش بعد قليل .

شحب وجه (حليم) ، وهو يقول فى هلع :

ـ الانكماش ؟!.. ماذا تعنى ؟

لوَّح (فائق) بماسورة مسدسه فى وجوه الجميع ، وقال بلهجة أقرب إلى الشماتة :

ـ ربما لاحظتم جميعًا أن هذه الحجرة جديدة ، ولم يكن لها وجود من قبل .

تمتم (خيرت) :

ـ هذا صحيح .

تابع (فائق) :

(*) كلوستوفوبيا : مصطلح يعنى (الخوف من الأماكن المغلقة) ، وهو مرض نفسى يصيب البعض ، فلا يحتملون البقاء طويلًا فى مكان مغلق .

ـ لقد صنعت هذه الحجرة منذ أسبوعين فقط ، وهى عبارة عن قفص كبير من الصلب ، تتحرَّك جدرانه على قضبان فولاذية سميكة ، بوساطة مكابس ضخمة بطيئة ، ولها مدخل واحد ، هو ذلك الباب ، الذى دخلتم منه جميعًا ، بعد أن اضطررتم لهذا ، مع كونها الحجرة الواحدة المضاءة ، التى يمكن الجلوس فيها ، فى الفيلا كلها .. والآن أصبحنا جميعًا داخل حجرة مغلقة .. قفص من الصلب ، يحوى كمية محدودة من الهواء ، وستبدأ جدرانه فى الاتجاه نحو بعضها البعض ، بعد خمس دقائق فحسب ، لتنطبق على أجسادنا ، وتسحقها سحقًا ، فى أقل من ساعة .

صرخ (خيرت) :

ـ مستحيل !!

وازداد شحوب وجه (حليم) فى شدة ، فى حين صاح (وصفى) فى عصبية مفرطة :

ـ أنتَ مجنون .. مجنون حتمًا .

ولوَّح (سمير) بذراعيه ، قائلًا :

ـ لماذا تفعل بنا هذا يا (فائق) ؟

عادت عينا (فائق) تبرقان فى شدة ، وهو يقول :

ـ الوسيلة الوحيدة لمنع حدوث هذا ، هى الضغط على زر خفى داخل الحجرة ، يوقف حركة الجدران ، ويفتح الباب .

صاح به (حليم) ، وهو ينتزع رباط عنقه ، ويلقيه أرضًا فى عنف :

ـ اضغط ذلك الزر إذن .. اضغطه أرجوك .. سأختنق هنا .

قال (فائق) فى صرامة :



ـ فليعترف القاتل أوَّلا .

هتف (سمير) :

ـ يا له من أسلوب سخيف ومطلب أسخف !.. إنك تحاول قتلنا جميعًا ، ثم تطالب القاتل بالاعتراف ، لتقتله وحده .. إذن فموقـف القـاتل واحـد فـى الحالتَين ، فلماذا يعترف ؟

اعتدل (فائق) بحركة حادة ، وقال :

ـ لن أقتله .. فليعترف ولن أقتله .

قال (وصفى) ثائرًا :

ـ أتتوقَّع منه أن يصدِّق هذا ؟

قال (فائق) :

ـ أقسم أننى لن أقتله .. فليصدِّق هذا أولا يصدِّقه ، ولكننى لا أرغب فى قتله ، بقدر ما أرغب فى معرفته .. فليعترف ولن يتجاوز اعترافه جدران هذه الحجرة .

مع نهاية عبارته ، سمع الجميع قرقعة عنيفة ، تصدر تحت أقدامهم ، فقفز (خيرت) من مكانه ، وهتف :

ـ ما هذا ؟

أجابه (فائق) :

ـ الجدران بدأت حركتها .

ارتجفت قلوبهم بين ضلوعهم ، وهم يحدقون فى ركن الحجرة ..

كانت حركة الجدران بطيئة للغاية ، ولكنها ملحوظة ، مع بعض التدقيق فى النظر ، فصاح (حليم) بانهيار :

ـ إنك تقتلنى .

وصرخ (خيرت) :

ـ بل يقتلنا جميعًا .

ردَّد (فائق) فى صرامة :

ـ فليعترف القاتل أوَّلا ، وينجو الجميع .

لوَّح (وصفى) بذراعه فى حدة ، وقال :

ـ لن يعترف القاتل أبدًا ، وسندفع جميعًا حياتنا ثمنًا لحماقتك وجريمته .

قال (فائق) فى صرامة :

ـ لو أنه عاقل فسيعترف .. عدم اعترافه يعنى مصرعنا جميعًا ، وهو بيننا ، أما اعترافه فسيمنحه فرصة نادرة للنجاة ، مادمت أقسمت أننى لن أقتله لو فعل .

تبادل الجميع نظرة قلقة ، وكل منهم يتمنى لو يعترف الآخر بالجريمة ، وتنتهى تلك الأزمة العجيبة المخيفة ، ثم هتف (حليم) ، وهو يمسك صدره :

ـ افتح الباب يا (فائق) .. أرجوك .. إننى أموت .

قال (فائق) فى حزم مخيف :

ـ قاوم يا عزيزى (حليم) .. قاوم .. لن تأخذنى بك رحمة أو شفقة .. اعترف لو أنك القاتل ، وسينتهى كل شىء .

كان يتحدث بأسلوب مخيف ، وكأنه وحش كاسر ، لم يعد فى أعماقه مكان لذرة رحمة ، أو بذرة شفقة ، والجدران تقترب من بعضها البعض فى بطء ، والرعب يتضاعف فى نفوس الجميع أكثر وأكثر ..

وفجأة صرخ (حليم) :

ـ لا .. لا .. اتركنى أخرج من هنا .. اتركنى .

قالها واندفع نحو الجدار المعدنى المجاور له ، وراح يضربه بقبضتيه فى عنف ، و (فائق) يراقبه فى برود عجيب ، جعل (خيرت) يهتف :

ـ هل جننت يا (فائق) ؟.. اتركه يخرج .. إنه ليس القاتل .

لم يجب (فائق) بحرف واحد ، وإنما بدا شديد البرود واللامبالاة ، وهو يراقب (حليم) فى قسوة مخيفة ، فاندفع (وصفى) نحوه ، صارخًا :

ـ أنت مجنون !

ولكن (فائق) أدار فوهة مسدسه إليه ، وقال فى صرامة :

ـ قف مكانك ، وإلا قتلتك بلا رحمة .

صاح (وصفى) :

ـ لن تقتلنى .. إنك تخيفنا فحسب .

قال (فائق) فى برود :

ـ هل تراهن ؟

صاح به (سمير) :

ـ نعم .. أنا أراهنك .. أراهنك على أن هذا المسدس خال من الرصاصات تمامًا .

أجابه (فائق) بطريقة عملية مخيفة .:

لقد أطلق رصاصة من مسدسه على المقعد الذى غادره (وصفى) منذ لحظات ، فاخترقت ظهره بصوت مكتوم ، وتركت فيه ثقبًا واضحًا ، فتراجع (وصفى) فى هلع ، وهو يردد :

ـ يا إلهى !

وابتسم (فائق) فى قسوة ، قائلًا :

ـ ما رأيك يا (سمير) ؟.. لقد خسرت الرهان .. أليس كذلك ؟

كان الجميع يعلمون أن (سمير) هو الأقرب إلى نفس (فائق) وقلبه ، وأن صداقتهما معروفة شهيرة ، لذا فقد أدار (خيرت) عينيه إلى (سمير) ، وقال مشيرًا إلى (حليم) ، الذى راح يلتقط أنفاسه فى صعوبة :

ـ أقنعه بترك (حليم) يا (سمير) .

قال (فائق) فى صرامة :

ـ مستحيل !.. فليعترف القاتل أولًا .

هتف (وصفى) :

ـ فليكن يا (فائق) .. اعتبرنى أنا القاتل ، وأخرجنا جميعًا من هنا .

ابتسم (فائق) فى سخرية ، وقال :

ـ هذا لا يكفى يا صديقى .. لابد وأن تقنعنى أولًا .

سأله فى عصبية :

ـ ماذا تعنى ؟

أجابه صارما :

ـ أعنى أن القاتل وحده يعرف ما الذى كشفته (منيرة) قبيل مصرعها ، فى المستندات المسروقة ، ويعرف كيف قتل (منيرة) ، وهرب دون أن يكشف رجال الشرطة أمره .

بدت الحيرة على وجه (وصفى) لحظات ، ثم قال :

ـ حسن .. أخرجنا أوَّلا ، وسأشرح لك كل شىء .

هتف (فائق) فى حدة :

ـ الاعتراف الكامل أوَّلا .

وهنا صاح (حليم) فجأة :

ـ حسن .. أنا القاتل .. أنا قتلت زوجتك ، وسرقت المستندات ، والنقود ، والمصاغ ، وكل شىء .. فقط أخرجنى من هنا .. أرجوك .

كان يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة ، على نحو يثير الشفقة فى أشد القلوب قساوة ، ولكن (فائق) قال فى صرامة :

ـ خطأ .. محاولة فاشلة يا رجل .. القاتل لم يسرق سوى المستندات .. لا نقود أو مصاغ .

صرخ (حليم) فى انهيار :

ـ أيها القاتل .. أنت تقتلنى الآن .. تقتلنى بلا رحمة .

ثم أمسك صدره فجأة ، وصرخ :

ـ لقد قتلتنى .

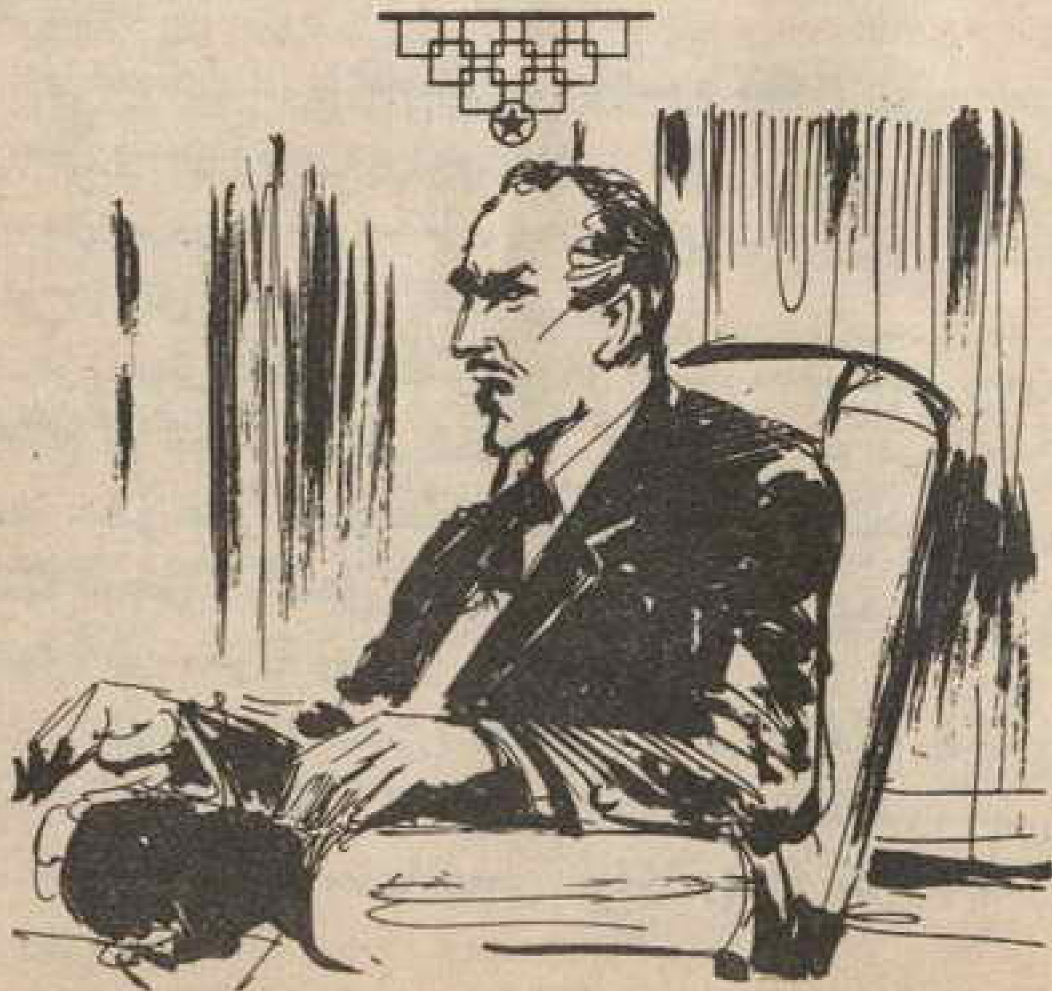
ثم هوى فجأة على الأرض ، وصاح (وصفى) :

ـ إسعاف .. إنه يحتاج إلى إسعاف عاجل .

اندفع (سمير) نحو (حليم) ، وانحنى يفحصه بسرعة ، ثم اعتدل وقال فى توتر شديد :

ـ لقد مات .

وانتفض جسد (خيرت) فى عنف .



٣ ـ لحظات الرعب ..

لثوان لم ينبس أى من الحاضرين ببنت شفة ، وهم ينقلون أبصارهم فى هلع وارتياع ، ما بين جثة (حليم) ، وتلك التعبير البارد الصارم القاسى ، الذى ارتسم على وجه (فائق) ، ثم هتف (وصفى) :

ـ الآن أصبحت أنت القاتل يا (فائق) .

ردَّد (فائق) فى برود :

ـ حقًا !

انهار (خيرت) أمام ذلك البرود المخيف ، وهوى فوق مقعده ، وهو يهتف :

ـ يا للمسكين !.. يا للمسكين !.. يا لسوء حظه !

جلس (سمير) بدوره ، وهو يردِّد :

ـ من يدرى أينا أسوأ حظًا .. نحن أم هو .

لوَّح (فائق) بمسدسه ، قائلًا فى هدوء :

ـ لو لم يعترف القاتل ، فسيصبح هو الأسعد حظًا بالتأكيد .. من الواضح أن قلبه لم يحتمل الخوف ، فلقى مصرعه فى لحظة واحدة ، على عكس ما سيحدث لنا ، عندما تنطبق هذه الجدران على بعضها البعض ، وتسحق أجسادنا كرقائق هشة ، من البطاطس المقلية ، بين مطرقة وسندان .

سرت فى جسد (وصفى) قشعريرة ، وهو يتخيَّل جسده ، والجدران تسحقه سحقًا ، وتطلَّع فى رعب إلى الجدران ، التى تواصل اقترابها ، من بعضها البعض ، وقال فى حدة تمتزج بالكثير من الخوف :

ـ أخرجنا من هنا يا (فائق) .. أخرجنا ولن يشير أحدنا قط إلى مصرع (حليم) .. سنقول أن أزمة قلبية باغتته ، فى أثناء سهرة نقضيها معًا ، فسقط قبل أن نتمكَّن من إسعافه .. صدقنى .

قال (فائق) فى صرامة :

ـ الاعتراف أوَّلًا .

هتف (خيرت) فى حدة :

ـ ومن أدراك أنه ليس (حليم) ؟.. ألا يحتمل أنه هو القاتل ، وأن خوفه من كشف أمره امتزج بعقدة الأماكن المغلقة ، التى يعانيها ، فسقط صريعًا .. هذا هو التفسير الوحيد لموته ، فلم أسمع فى حياتى كلها عن رجل قتله خوفه من الأماكن المغلقة .

تدخل (وصفى) ، قائلًا :

ـ هذا صحيح .. خوفه من افتضاح أمره قتله .

أطلق (فائق) ضحكة ساخرة عالية ، تردد صداها فى الحجرة المغلقة ، التى تزداد ضيقًا باستمرار ، قبل أن يقول :

ـ يا لها من لعبة طريفة !.. أحدكم يلقى مصرعه ، فيتهمه الجميع بأنه القاتل ، ليفوزوا بأرواحهم .

قال (سمير) :

ـ ولِمَ لا يكون هذا حقيقيًا ؟.. أليس أحد مديرى الشركة ؟!

قال (فائق) فى برود :

ـ بلى .. ولكنه ليس القاتل .

صاح به (خيرت) :

ـ ومن أدراك ؟

أطلت صرامة هائلة من عينى (فائق) ، وهو يقول :

ـ لأننى أعلم من هو القاتل الحقيقى .

ران على الحجرة الصغيرة صمت رهيب ، والجميع يحدّقون فى وجه (فائق) ، قبل أن يغمغم (وصفى) فى توتر بالغ :

ـ تعرفه ؟!

ثم هتف فى عصبيته المعهودة :

ـ لماذا تلعب هذه اللعبة السخيفة إذن ؟

أجابه (فائق) ، وعيناه تتألّقان فى شدة :

ـ لأننى أريد سماع اعترافه بأذنىّ .

صاح (خيرت) :

ـ لماذا ؟.. أهى مجرّد رغبة سادية ؟!

هزّ (فائق) كتفيه فى لامبالاة ، وقال :

ـ ربّما .

ألقى (وصفى) نظرة أخرى على الجدران المقتربة ، ثم قال فى عصبية شديدة :

ـ ولكنك مجنون .. مجنون بحق .. ما هذا الذى تفعله بنا ؟.. هناك قانون وشرطة ، وقضاء .. ليس من حقك أن تلعب دور القاضى والجلّاد .

ابتسم (فائق) قائلًا :

ـ بل ألعب دور المخرج يا رجل .. مخرج واحد من أخطر أفلام الرعب ، فى عالم الواقع .. أوّل وآخر فيلم رعب حقيقى نشاهده .

شحب وجه (وصفى) ، وتلفّت فى هلع إلى (خيرت) و (سمير) ، فقال الأوّل فى توتّر ، وهو يحاول التظاهر بالهدوء والحكمة :

ـ اسمع يا (فائق) .. سنصل حتمًا إلى اتفاق يرضى الجميع .. ستوقف هذه الجدران ، ونذهب معًا إلى أقرب قسم شرطة ، و ...

قاطعه (فائق) فى خشونة :

ـ هراء .

ثم أضاف فى صرامة :

ـ القاتل وحده يمكنه إنهاء هذا الموقف ، باعتراف واحد صريح .

تعالت قرقعة أخرى ، فى اللحظة نفسها ، وانتفض جسد (خيرى) فى هلع ، عندما شاهد جدارًا يحطّم مسند مقعد قريب منه ، وهو يزيحه أمامه فى بطء ، وهتف :

ـ لماذا يا (فائق) ؟.. لماذا ؟.. اذهب بنا إلى أقرب قسم شرطة ، وأخبرهم بشكوكك كلها ، واترك للقانون مهمة إلقاء القبض على القاتل ، مادمت تعلم من هو ..

استرخى (فائق) فى مقعده مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ قلت لك : إننى فعلت .. أخبرت الشرطة بشكوكى .. وباسم القاتل أيضًا ، ولكن كان من المستحيل أن يلقى رجال الشرطة القبض على القاتل ، دون دليل واحد يدينه .. أنا نفسى رجوتهم ألا يفعلوا ، فإلقاء القبض عليه دون أدلّة لن يدينه ، بل سينبهه إلى دقة موقفه ، ويجعله يتخذ المزيد من الحذر ، فيضيع دم (منيرة) إلى الأبد .

صاح (وصفى) :

ـ إذن فأنت تهدر دماءنا كلنا ، حتى لا يضيع دم زوجتك .

قال (فائق) فى حدة :

ـ هذا حقى .

هبَّ (سمير) من مقعده ، وقال فى غضب :

ـ لا يا (فائق) .. ليس حقك .

هتف (فائق) فى استنكار :

ـ أنت ؟!.. أنت يا (سمير) تقول هذا ؟!.. إننى أعتبرك دائمًا أخلص أصدقائى .

لوَّح (سمير) بكفه ، وهو يقول :

ـ أنا أيضًا كنت أعتبرك كذلك يا (فائق) .

اتسعت عينا (فائق) ، وهو يقول فى دهشة :

ـ كنت ؟!

هتف (سمير) :

ـ نعم يا (فائق) .. كنت .. فالآن لم أعد أعتبرك كذلك .. إنك لست صديقًا لأحد ، ولا يمكنك أن تكون صديقًا لشخص عادى .. لقد فقدت صوابك ، وصرت مجرَّد رجل عنيد ، يسعى لثأر مجنون وسخيف .

صاح (فائق) :

ـ إننى أثأر لـ(منيرة) .

هتف (سمير) :

ـ هذا لا يمنحك الحق فيما تفعله بنا .

أسرع (وصفى) يقول :

ـ هذا صحيح .

تجاهله (فائق) تمامًا ، وهو يقول لـ(سمير) فى حدة :

ـ من قال هذا ؟.. إنك أكثر من يعرف علاقتى بـ(منيرة) .. أكثر من يعرف كم كنت أحبها ، وكم كانت حياتنا سعيدة هانئة .. صحيح أن الجميع تصوَّروا أننى تزوَّجتها بسبب أموالها وثرائها ، ولكن الحقيقة تختلف عن هذا كثيرًا .. لقد تزوَّجتها لأننى أحببتها .. أحببتها من كل قلبى .. كانت لى دائمًا نعم الزوجة والصديقة والرفيقة .. بل الأم الحنون أيضًا .. لن يمكننى تعويضها أبدًا يا (سمير) .

وأطلَّ من عينيه غضب هائل ، وهو يضيف :

ـ ولن ينجو قاتلها بفعلته أبدًا .. هل سمعت ؟.. أبدًا .

قال (سمير) فى حدة مماثلة :

ـ فليكن يا (فائق) .. اقتله لو أنك تعرفه .. أو سلمه إلى الشرطة ، لو أردت ألا تلوّث يديك بدمه ، ولكن اترك الآخرين .. ألا يكفيك أنك قتلت (حليم) ؟.. ألا يكفيك دمه الذى أهدرته ، وأنت تعلم ـ كما قلت ـ إنه ليس القاتل ؟

هتف (فائق) :

ـ كان هذا قدره .

صاح به (سمير) :

ـ بل هو عنادك .

لوَّح (فائق) بذراعيه ، هاتفًا :



- فليعترف القاتل الحقيقى إذن ، وينتهى كل شىء .

قال (سمير) :

- أخبرنا من هو ، وسنجبره على الاعتراف .

التفت (فائق) إلى (خيرت) و(وصفى) ، ونقل بصره بين وجهيهما فى توتر ، وهو يقول :

- لا .. لابد أن يعترف بنفسه .

عقد (سمير) حاجبيه ، وقال :

- فى هذه الحالة لن أبقى هنا لحظة واحدة .

ثم تحرَّك نحو (فائق) ، قائلًا فى صرامة :

- أعطنى هذا المسدس يا (فائق) ، ودعنا نخرج من هنا .

صوَّب إليه (فائق) المسدس ، وقال فى صرامة :

- لا تقترب يا (سمير) .. ابق مكانك .

واصل (سمير) اقترابه ، وهو يقول فى حزم :

- قلت أعطنى المسدس .

تطلَّع (خيرت) و(وصفى) إلى (سمير) فى أمل ، وتمنى (وصفى) لو أن (سمير) نجح فى انتزاع المسدس ، ولكن (فائق) قال فى شراسة مباغتة :

- لقد حذَّرتك .

ودوى صوت الرصاصة فى الحجرة ..

وجحظت عينا (سمير) ..

ثم هوى جثة هامدة .

★ ★ ★

٤ ـ اعتراف ..

أطلق (وصفى) شهقة عنيفة ، مع سقوط (سمير) ، وتراجع فى حركة حادة إلى الخلف ، فالتصق بالجدار ، إلا أنه لم يكد يشعر ببرودته وحركته ، حتى ارتدّ عنه ككرة من المطّاط ، وهتف فى ارتياع :

ـ لقد قتلته .. قتلت (سمير) .. أعز أصدقائك .

قال (فائق) فى قسوة :

ـ هو تسبّب فى هذا .

هتف (خيرت) :

ـ هكذا ؟!.. بكل بساطة ؟!.. أتقتل صديق عمرك ، وتقول : إنه هو الذى تسبّب فى هذا ؟

قال (فائق) فى قسوة :

ـ هذا ما حدث .. والقاتل هو المسئول عن كل هذا ، فلو اعترف لانتهى كل شىء .

ترك (وصفى) جسده يسقط على مقعده ، وأخفى وجهه بكفيه ، وهو يقول فى مرارة :

ـ لا فائدة .. لا فائدة .

ثم رفع عينيه المذعورتين ، وتطلّع إلى الجدران ، التى ابتلعت فى اقترابها نصف الحجرة تقريبًا ، وهتف بغتة :

ـ لقد عرفت .

سأله (خيرت) فى دهشة متوتّرة :

ـ عرفت ماذا ؟

صاح (وصفى) ، موجّهًا حديثه إلى (فائق) :

ـ عرفت من هو القاتل .

سأله (فائق) فى هدوء :

ـ من هو ؟

التفت (وصفى) بحركة حادة إلى (خيرت) ، وصاح :

ـ هو .. (خيرت) هو القاتل .

تراجع (خيرت) كالمصعوق ، هاتفًا :

ـ أنا ؟!

صاح (وصفى) :

ـ نعم .. أنت القاتل .. لم يعد هناك سوانا .. أنت وأنا ، وأنا أعلم أننى لست القاتل ، فلم يبق إذن سواك .

هتف (خيرت) فى غضب :

ـ أنا أيضا أعلم أننى لست القاتل ، فلم لا تكون أنت .

استرخى (فائق) فى مقعده أكثر وأكثر ، وبدا وكأنه يستمتع بهذا الشجار ، وهو يقول :

ـ هيا .. هل سيعترف أحدكما ؟

قال (وصفى) فى توتر :

ـ هيّا يا (خيرت) .. اعترف .. اعترف ودعنا نغادر هذا المكان اللعين ، قبل أن تسحقنا هذه الجدران ..

همّ (خيرت) بالاعتراض ، عندما صدرت قرقعة أخرى مخيفة ،

ووقع بصره على أحد الجدران المتحركة ، وهو يسحق جانب أحد المقاعد ، فهتف فى ارتياع :

ـ فليكن .

التقى حاجبا (فائق) ، وهو يعتدل ، وينظر إليه فى اهتمام ، فى حين استطرد هو فى عصبية ، وهو يلقى نظرة محنقة على (وصفى) :

ـ سأعترف .. أنا القاتل .

ردّد (فائق) فى بطء :

ـ أنت !

أومأ (خيرت) برأسه فى حدة ، وقال :

ـ نعم .. أنا .. أنا الذى اختلس أموال الشركة ، وزوجتك توصّلت إلى هذا ، وهدّدتنى بإبلاغ الشرطة ، فأسرعت بسيارتى إلى هنا . وحاولت إقناعها بالتنازل عن هذا ، وعندما رفضت أطلقت عليها النار ، وهربت قبل عودتك ، بعد أن سرقت المستندات .

هتف (وصفى) فى ذهول :

ـ إذن فهو أنت حقًّا ؟!.. يا إلهى

أما (فائق) ، فقال فى بطء مثير :

ـ لقد اعترفت .

قال (خيرت) فى عصبية شديدة :

ـ نعم .. اعترفت .. هيا .. أخرجنا من هنا .

سأله (فائق) :

ـ وأين هذه المستندات ؟!

ـ أجابه بسرعة :

ـ مزقتها .. حرقتها .. لم يعد لها وجود .. والآن هيا .. لقد حصلت على الاعتراف الذى تنشده .. أخرجنا من هنا إذن .

ضغط (فائق) زرًّا فى مسند مقعده ، وهو يقول :

ـ نعم .. لقد حصلت على الاعتراف .

تطلّع (وصفى) و(خيرت) فى لهفة إلى الحاجز المعدنى ، الذى يسدّ الباب ، وكل منهما يتصوّر أنه سيرتفع ، ويفتح الطريق ، بعد أن ضغط (فائق) هذا الزر ، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث ، فهتف (وصفى) فى حدة :

ـ لماذا لم تفتح الباب ، وتوقف الجدران ؟

نهض (فائق) واقفا ، وهو يقول :

ـ هذا الزر لا يفعل ذلك ، وإنما يوقف التسجيل .

ازدرد (خيرت) لعابه فى صعوبة ، وهو يقول :

ـ أى تسجيل ؟

أجابه فى صرامة ، وهو يصوّب مسدسه إليه :

ـ لقد سجلت كل لحظة ، منذ دخولنا إلى هذه الحجرة ، وحتى لحظة الضغط على الزر يا (رجل) .. سجّلت كل ما حدث بالصوت والصورة .. والآن حانت لحظة الثأر .

جذب إبرة مسدسه ، فصرخ (خيرت) :

ـ ولكن .. ولكنك وعدت .

قال (فائق) فى لهجة مخيفة :

ـ لست أعد القتلة .

لوَّح (خيرت) بيده ، صائحًا :

ـ إنك لم تفهمنى .. لقد قلت كل هذا من أجل ..

قاطعه دوى الرصاصة ، فارتجَّ جسده ، واتسعت بقعة حمراء على صدره ، قبل أن يهوى فوق مقعده ..

وهتف (وصفى) فى شبه انهيار :

ـ لقد قتلته .

أجابه (فائق) ، وهو يلقى مسدسه جانبًا :

ـ كان يستحق هذا .

صاح (وصفى) :

ـ لن نناقش هذا الآن .. أخرجنا من ذلك الفخ القاتل أولًا ، ثم قل ما يحلو لك .

كان يقولها ، وهو يتحرَّك نحو الباب المعدنى ، إلا أن قدميه تسمَّرتا فى مكانهما ، وانتفض جسده فى قوة ، واتسعت عيناه فى هلع ورعب وارتياع ، وهو يحدِّق فى ذلك الشخص الذى نهض ، والتقط المسدس ، ثم صوَّبه إليه فى هدوء ، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة ، وهو يقول :

ـ ليس بهذه السرعة .

كاد يسقط مصعوقًا ، وهو يحدِّق فى وجه الذى نطق هذه الكلمات ..

فى وجه (سمير) .

★ ★ ★

٥ ـ الخـدعة ..

خفق قلب (وصفى) فى قوة ، وهو يقول فى ارتياع :

ـ ما معنى هذا ؟.. ما معنى كل هذا ؟

كاد يقفز من مكانه مذعورًا ، عندما رأى (حليم) ينهض بدوره ، ويقول :

ـ معناه أننا لم نمت يا رجل .. ألم تفهم بعد ؟

جفَّ حلق (وصفى) تمامًا ، وهو يقول :

ـ كـ ... كيف ؟

أطلق (فائق) زفرة قوية ، ثم اتجه إلى مقعد (حليم) ، وألقى جسده فوقه ، وأسبل جفنيه ، فى حين أجاب (سمير) :

ـ (فائق) هو الذى أعدَّ كل هذه الخطة ، ليبدو فى صورة الشخص القاسى ، الشرس ، الذى أصابه الجنون ، ويمكنه فعل أى شىء كان ، للحصول على اعتراف يدين قاتل زوجته .. (حليم) لم يصب أبدًا بعقدة الأماكن المظلمة ، بل تظاهر بهذا ، وبالموت ، وأنا تظاهرت بالتشاجر مع (فائق) ، وأطلق علىَّ هو رصاصة زائفة ، تحوى صبغيات حمراء ، شبيهة بالدم ، بعد أن وضع الرصاصات فى مسدسه بترتيب خاص ، بحيث كانت الرصاصة الأولى ، التى أطلقها على المقعد حقيقية ، وتليها أخرى زائفة لى ، ثم رصاصات حقيقية فيما بعد .

هتف (حليم) :

ـ حقيقية ؟!..إذن فقد قتل (خيرت) !.. يا إلهى !.. إننا لم نتفق على هذا .

أطلق (سمير) ضحكة ساخرة ، بدت عجيبة فى مثل هذا الموقف ، وهو يقول :

- إنه لم يقتل (خيرت) وحده يا رجل .. لقد قتلك أيضًا .

قال (حليم) فى حيرة :

- أنا أيضًا ؟!.. كيف ؟!

أدار (سمير) فوهة مسدسه نحوه ، وقال :

- هكذا .

قرن قوله بضغطه على زناد المسدس ، وتفجّرت الدماء فى صدر (حليم) أيضًا ، فهوى صامتًا ، وشهق (وصفى) فى رعب ، فى حين هبّ (فائق) واقفًا ، وهو يقول :

- ماذا فعلت أيها الأحمق ؟.. لقد قتلته .

عاد (سمير) يصوّب إليه المسدس بسرعة ، وهو يقول :

- بل أنت الأحمق يا (فائق) .. كان ينبغى أن تبلغ الشرطة بما تنوى فعله ، فهذه التسجيلات تحتاج إلى إذن من النيابة ، حتى تصبح دليلًا رسميًا .. أما الآن فهى ستكفى فقط لتثبت أنك رجل مجنون ، وأنك قتلت الجميع ، قبل أن تنتحر .

قال (فائق) فى انزعاج :

- أنتحر ؟!

أومأ (سمير) برأسه إيجابًا ، وقال :

- نعم يا صديقى .. تنتحر .. سأطلق النار عليك وعلى (وصفى) الآن ، ثم أغادر الحجرة ، عن طريق الزر الخفى ، الذى أخبرتنى

بمكانه ، ونحن نتفق على أداء هذه الخدعة ، وأعيد تشغيل الجدران ، حتى تسحقكم جميعًا ، ويبقى شريط الفيديو ، الذى يسجّل كل ما فعلت ، والذى سيقنع الشرطة بجنونك .

قال (فائق) :

- وماذا عنك ؟

أجابه (سمير) :

- هناك مقعد ينتظرنى ، فى طائرة الخطوط الأمريكية ، التى تغادر المطار بعد ثلاث ساعات إلى (نيويورك) ، وبصحبتى حقيبة أنيقة ، تحوى نصف مليون دولار ، هى كل ما اختلسته من شركة زوجتك اللعينة ، طوال عامين .

وارتسمت على شفتيه ابتسامة قاسية ، وهو يستطرد :

- غباؤك هو الذى سيعاوننى على الفرار .

قال (فائق) فى مقت :

- إذن فأنت الذى قتل (منيرة) .

قال (سمير) فى حدة :

- كانت غبية .. كشفت أمر الاختلاسات بالمصادفة البحتة ، وكان يمكنها السكوت ، بعد أن وعدتها بإعادة المبلغ والاستقالة من الشركة ، ولكنها كانت تغار من صداقتى لك ، ووجدت أمامها فرصة لتحطيمى .

كرّر (فائق) فى غضب :

- أنت يا (سمير) .. أنت قتلت (منيرة) .

قال (سمير) فى توتر :

ـ اطمئن .. ستلحق بها بعد قليل .

قالها وضغط زناد المسدس مرتين متتاليتين ، وظهرت بقعتا دم على صدر (فائق) ، وهو يقول :

ـ أنت يا (سمير) ؟!

ثم هوى مرتطمًا بالحائط ، وسقط على وجهه ..

وأدار (سمير) فوهة مسدسه نحو (وصفى) ، الذى لوّح بذراعيه صارخا :

ـ إننى لم أر شيئا .. أقسم أننى لن أخبر أحدا بما حدث .. هيا .. الحق بطائرتك ، وأخرجنى من هنا .. قيّدنى فى المقعد لو أردت ، أو حتى احبسنى فى دورة المياه ، ولكن اتركنى حيًا .. أرجوك .

هزّ (سمير) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ للأسف .. لا يمكننى هذا أبدا يا (وصفى) .. وجود واحد منكم على قيد الحياة يفسد كل شىء .. الوداع .

وضغط زناد المسدس ، وشعر (وصفى) بشىء يرتطم بصدره ، فصرخ فى رعب :

ـ لا .. لا .

ولكن ذلك الشىء لم يكن مؤلمًا كما تصوّر ..

لقد تفجّر على صدره ، ولوّث قميصه الأبيض بشىء يشبه الدماء الباهتة ، ولكن دون أدنى ألم ..

وفى ذهول ، هتف (وصفى) :

ـ هذه ليست رصاصة .

كرّر (سمير) فى ارتياع :

ـ ليست ماذا ؟

أجابه (فائق) ، وهو ينهض فى بطء :

ـ ليست رصاصة .. هل أصابك ضعف السمع ؟

تراجع (سمير) فى ذهول ، وهو ينقل بصره من (فائق) إلى (خيرت) و(حليم) ، اللذين نهضا بدوريهما ، وراح الجميع يتطلعون إليه فى صرامة ، و(وصفى) يهتف :

ـ إذن فأحدكم لم يمت ؟!.. أى عبث هذا ؟.. ماذا تفعلون بى ؟

وقال (سمير) فى انهيار :

ـ كانت خدعة .. كل هذا كانَ خدعة !

أومأ (فائق) برأسه إيجابًا ، وقال فى مرارة :

ـ نعم يا (سمير) .. كل هذا كان خدعة .. لقد أخبرتنى (منيرة) قبل مصرعها أنك أنت المختلس ، ولكننى لم أشأ تصديقها .. تصوّرت أنها تقول هذا بسبب غيرتها الدائمة من صداقتنا .. ثم لقيتَ مصرعها .. والواقع أننى أخبرت الشرطة ما حدث ، ولكن اختفاء المستندات ، وعدم وجود دليل إدانة واحد ، جعل من الحماقة إلقاء القبض عليك ؛ لذا فقد اقترح ضابط الشرطة فكرة التلاعب بك ، لدفعك إلى الاعتراف بجريمتك ، والباقى من إعدادى أنا .. كنت تتصوّر أنك تخدعنا جميعًا ، فى حين كنا جميعًا نخدعك .

ثم التقى حاجباه ، وهو يستطرد :

ـ أما بالنسبة للتسجيلات ، فهى حقيقية يا (سمير) .. ولكنها قانونية تمامًا ، وتتم منذ البداية بإذن من النيابة .

ومطَّ شفتيه ، مردفًا فى مرارة :

ـ لم أصدِّق أبدًا أن يفعل بى أصدق أصدقائى هذا يا (سمير) .

انهار (سمير) على مقعده ، ودفن وجهه بين كفيه ، و (وصفى) يهتف :

ـ إذن فأنا الوحيد الذى لم يعلم ما يحدث ، وأنت تعد المؤامرة تلو الأخرى ، تارة مع (سمير) و (حليم) ، وتارة مع (حليم) و (خيرت) ، ولا أحد يخبرنى بشىء .

قال (فائق) :

ـ كان من الضرورى أن يبقى أحدنا طبيعيًا ياصديقى .. أليس كذلك ؟

نظر (وصفى) إلى الجدران ، التى تواصل اقترابها ، وقال :

ـ لا بأس .. لا بأس .. لنخرج من هنا أوَّلا ، ونناقش كل هذا فيما بعد .

اتجه (فائق) إلى (سمير) ، وقال فى صرامة :

ـ هيا .. سيصل رجال الشرطة بعد لحظات .

قالها وضغط زرًا خفيًا بالحائط ، فارتفع الحاجز المعدنى ، وأسرع (وصفى) يقفز خارج الحجرة ، وتبعه (حليم) و (خيرت) فى خطوات سريعة ، فى حين قال (فائق) مرة أخرى :

ـ هيا يا (سمير) .. لم يعد هناك سوى السجن والفضيحة .

نهض (سمير) من مقعده فى بطء ، وغمغم :

ـ نعم .. السجن والفضيحة .

ثم دفع (فائق) بكل قوته فجأة خارج الحجرة ، صائحًا :

ـ بل هناك حل آخر .

ووثب يضرب مسند المقعد بكل قوته ، فهوى الحاجز مرة أخرى ، وواصلت الجدران اقترابها من بعضها البعض ، وصاح (وصفى) فى الخارج :

ـ أوقف الجدران يا (فائق) .. أوقفها .

قال (فائق) فى توتر :

ـ لا يوجد وسيلة لإيقافها من الخارج .. الزر الوحيد الذى يفعل هذا بالداخل .

صاح به (خيرت) :

ـ افعل شيئًا .. افصل التيار الكهربى ، أو انسف باب الحجرة .. افعل شيئًا .

ولكن (فائق) بقى صامتًا ، جامدًا ، والقرقعة المكتومة ، التى تأتى من داخل الحجرة ، توحى بأن الجدران تسحق المقاعد سحقًا ، وتكاد تنطبق على بعضها البعض ..

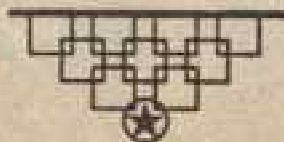
ثم ميَّز الجميع صرخة مكتومة ، انتفضت لها أجسادهم ، فى نفس اللحظة التى وصل فيها رجال الشرطة ..

ولم يجد رجال الشرطة سوى جدارين متلاصقين من الصلب ، يحتاج فصلهما إلى ونشين عملاقين ..

ولم تعد هناك حجرة إضافية بالڤيلا ..

وإلى الأبد .

[تمت بحمد الله]





الزائر

قصة قصيرة

هطلت الأمطار بشدة ، فى تلك الليلة ، وراحت القطرات الثقيلة تضرب زجاج نافذة حجرة مكتب (نجيب) ، بصوت رتيب مستمر ، زاد من توتره ، وهو يتطلع إلى ساعته ، التى تشير عقاربها إلى الثانية بعد منتصف الليل ، ويقلب أوراق ملف ضخم بين يديه ، يحمل اسم قضية ضخمة ، يحاول البحث عن الفاعل فيها دون جدوى ، منذ خمسة أيام ..

كانت جريمة قتل ، راح ضحيتها رجل أعمال شهير وزوجته ، وسرق القاتل كل أوراق الرجل ، وكل نقود ومجوهرات الزوجة ، دون أن يترك خلفه أدنى أثر ، ودون أن يشير إليه دليل واحد ..

و(نجيب) هو المسئول عن التحقيق فى هذه القضية ، وعن البحث عن الفاعل المجهول ..

ويا لها من قضية !..

لم يغمض له جفن منذ خمسة أيام ، ولم ينعم بالراحة لحظة واحدة ، أو يغادر مكتبه إلى منزله وزوجته وعائلته ..

صارت هذه القضية هى شغله الشاغل ..

وفى تلك الليلة بالذات ، ومع هطول الأمطار ، أصبحت أعصابه أشبه بوتر مشدود ، فوق نيران مستعرة ، وصار واثقًا من أنه ، لو لم يتوصل إلى حل القضية ، فسيصاب بالجنون حتمًا ..

ثم سمع تلك الطرقات الهادئة على باب الحجرة ..

رفع عينيه ليطلب من الطارق الدخول ، وامتلأت نفسه بدهشة عارمة ، عندما رآه داخل الحجرة بالفعل ، يقف أمام الباب ، فى معطف قديم رث ، وبشعره الأشيب ، وشاربه الكث ، وملامحه التى تضفى عليه هيبة ووقارا ، فاعتدل فى مقعده ، وقال فى حدة :

ـ من أنت ؟.. وكيف دخلت إلى هنا ؟

قال الرجل فى هدوء :

ـ أنا (أحمد برهان) .. مفتش المباحث بالمديرية .

كان هذا جوابا للسؤالين ، فلن يعترض ذلك الجندى أمام مكتبه ، طريق مفتش مباحث المديرية ، إذا ما أراد الدخول إليه ..

ثم أن الاسم يبدو مألوفا ، مما جعله ينهض من خلف مكتبه ، ويمد يده لمصافحة الرجل ، قائلا :

مرحبا بك فى مكتبى يا سيادة المفتش .

لم يبد أن المفتش قد لاحظ يده الممدودة إليه ، فقد انشغل بنفض

قطرات المطر عن معطفه ، وهو يتجه إلى المقعد المقابل للمكتب ، قائلًا :

ـ سمعت أنك المسئول عن قضية القتل الأخيرة .

أعاد (نجيب) يده إلى جواره ، وضايقه أن المفتش لم يصافحه ، ولكنه تجاوز هذه النقطة ، وربّت على الملف الضخم ، قائلًا :

ـ إننى أحاول دراستها منذ خمسة أيام ، ولم أتوصّل إلى شىء .

أومأ المفتش برأسه متفهمًا ، وقال :

ـ إنها ليست بالقضية السهلة .

ثم داعب شاربه الأبيض الضخم ، الذى يشبه شوارب ملوك القرن الماضى ، قبل أن يضيف :

ـ ولكن التوصّل إلى الحل ليس مستحيلًا .

شبّك (نجيب) أصابع كفيه أمام وجهه ، وقال :

ـ ألديك فكرة محدودة يا سيادة المفتش ؟

ابتسم المفتش ابتسامة باهتة ، وقال :

ـ ربّما .

وداعب شاربه مرة أخرى فى بطء وعناية ، قبل أن يتابع :

ـ على الرغم مما تبدو عليه القضية من غموض ، إلا أن هذا الغموض نفسه قد يكون الحل .

اعتدل (نجيب) ، وقال فى اهتمام :

ـ حقًا ؟!.. وكيف يحدث هذا ؟

رفع المفتش سبّابته أمام وجهه ، وقال :

ـ القاتل ـ أى قاتل ـ مهما بلغ من الحنكة والشراسة والذكاء ، لابد له من الوقوع فى خطأ واحد ، يرشدنا حتمًا إليه .. إنها قاعدة

العمل فى المباحث يا فتى .. ومهمتنا هى البحث عن ذلك الخطأ ، الذى لم ينتبه إليه القاتل .. وفى هذه القضية كان القاتل حريصًا للغاية ، فلم يترك خلفه أية أدلة ، أو بصمات ، أو علامات تقود إليه ، ولكنه فى الوقت ذاته قتل رجل الأعمال وزوجته فى منزلهما ، وبعد انصراف الخدم والسائق ، وهذا يعنى أنه شخص ينتمى إليهما ، أو يعرف الكثير عنهما على الأقل .

قال (نجيب) فى حسم :

ـ خطأ .. لقد كسر القاتل قفل الباب ، حتى يمكنه الدخول ، ولو أنه ينتمى إليهما كما تتصوّر ، لما فعل هذا .

ابتسم المفتش ، قائلًا :

ـ بل هذا هو الخطأ الذى وقع فيه ، فجريمة القتل تمت فى الحادية عشرة ، ورجل الأعمال وزوجته لم يكونا قد ارتديا ثياب النوم بعد .. وليس من المنطقى أن يكسر القاتل قفل الباب ، ويقتحم الشقة ، فى وجود رجل الأعمال وزوجته مستيقظين ، ورجل الأعمال يمتلك مسدسًا مرخصًا للدفاع عن نفسه ، وكان يمكنه استخدامه ، لو سمع من يكسر بابه .

التقى حاجبا (نجيب) ، وهو يقول فى حماس :

ـ هذا صحيح .. كيف لم أنتبه إلى هذه النقطة ؟.. هذا يقلب كل شىء رأسًا على عقب .. القاتل إذن شخص يعرفه رجل الأعمال وزوجته ، دخل شقتهما بشكل شرعى بسيط ، ثم قتلهما ، وسرق الأوراق والأموال والمجوهرات ، وبعدها كسر قفل الشقة ، ليبدو الأمر كجريمة قتل وسرقة .

قال المفتش :

ـ هناك نقطة أخرى تتعلق بالثياب ، فليس من الطبيعي أن يرتدى الاثنان ثيابهما ، وقد بلغت الساعة الحادية عشرة مساءً ، وانصرف الجميع ، إلا لو كانا ينتظران زائرًا .

هتف (نجيب) :

ـ هذا صحيح .. ومن المحتم أن هذا الزائر وثيق الصلة بهما ، إلى الحد الذى يدفعه لزيارتهما فى هذا الساعة المتأخرة ، ولكنه ليس أحد أقاربهما المقربين فى الوقت ذاته ، وإلا ما ارتديا ثيابًا رسمية لاستقباله .

بدا الارتياح على وجه المفتش ، وقال :

ـ عظيم .. هذا يحصر دائرة المشتبه فيهم إذن فى ثلاثة .. أليس كذلك ؟

ـ بلى .. سأخبرك أسماءهم .

لوّح المفتش بيده ، وقال :

ـ إننى أحفظها عن ظهر قلب ، ولكن دعنا نختصرها إلى اسم واحد أو اسمين على الأكثر ، وهذا يقفز بنا إلى نقطة جديدة .. صحيح أن القاتل حطّم رتاج المكتب ودولاب حجرة النوم ، ليسرق المستندات والأموال والمجوهرات ، ولكنه لم يعبث بالشقة ، أو يحطّم شيئًا آخر .. إذن فقد كان يعرف موضع كل هذه الأشياء جيدًا ، وهذا يعنى أنه حتمًا ..

قفز (نجيب) صائحًا :

ـ (نذير) .. صديق رجل الأعمال ، وشريكه فى المصنع الجديد .. نعم .. إنه القاتل .. الآن اتضح كل شىء .

ارتسمت على شفتى المفتش ابتسامة ارتياح كبيرة ، فى حين اختطف (نجيب) سماعة الهاتف ، وقال :

ـ (أيمن) .. إنه أنا .. (نجيب) .. أتحدث إليك من مكتبى .. لقد توصلت إلى القاتل .. نعم .. أنا واثق تمام الثقة من هذا .. استخرج أمرًا بإلقاء القبض عليه على الفور .. إنه (نذير) .. نعم .. (نذير عثمان) .

أعاد سماعة الهاتف إلى موضعها ، وهو يرفع عينيه إلى حيث يجلس المفتش ، هاتفًا :



ـ لست أدرى كيف أشكرك يا سيدى ، على هذا الـ ...

بتر العبارة بغتة ، وهو يحدق إلى المقعد فى حيرة ، ثم أدار عينيه فى الحجرة كلها فى سرعة ، بحثًا عن المفتش ، قبل أن يقفز من خلف مكتبه ، ويفتح باب الحجرة ، هاتفًا فى جندى الحراسة :

ـ أين الزائر ؟

انتفض الجندى ، قائلًا فى توتر :

ـ أى زائر يا سيدى ؟

قال فى حدة :

ـ مفتش مباحث المديرية ، الذى كان فى مكتبى .. أين ذهب ؟

فغر الجندى فاه مشدوهًا ، وهو يقول :

ـ مفتش ماذا ؟!.. إن أحدًا لم يدخل مكتبك منذ تسلمت نوبة الحراسة هذه ، فى الثامنة مساءً يا سيدى .

اتسعت عيناه فى دهشة ، وهمَ بقول شىء ما ، ولكنه لسبب ما أطبق شفتيه ، وعاد إلى مكتبه ، وأغلق بابه فى وجه الجندى ، الذى لم يفارقه ذهوله بعد ، وعبر المكتب فى خطوات سريعة ، إلى الجدار الأيسر ، وأدنى عينيه من صورة صفراء قديمة ، تحتل موضعها داخل إطار متهالك ، منذ تسلّم عمله فى هذا المكتب ، من شهرين كاملين ، وطالعه فى منتصفها وجه مفتش المباحث ، وهو يبتسم ابتسامته الهادئة ، بشعره الأشيب وشاربه الكث ، وحوله عدد من ضباط وجنود الشرطة ، تعلو رءوسهم الطرابيش القديمة ، وأسفل الصورة شريط من الورق ، يحمل كلمات قديمة مصفرة تقول :

ـ (أحمد بك برهان) .. مفتش مباحث المديرية ، عند حصوله على لقب (الباكاوية) ، لبراعته الملحوظة فى حل القضايا الغامضة .

ثم تاريخ التقاط الصورة ، عام ١٩٣٣ م ..

واتسعت عينا (نجيب) ، وهو يتراجع ، ويسير كالمسحور نحو مكتبه ، ويلقى نفسه على مقعده ، ثم يتطلّع مشدوهًا إلى ملف قضية رجل الأعمال ، قبل أن يدير عينيه فى بطء إلى الصورة القديمة ، ويختلط صوته بصوت قطرات المطر ، التى تواصل ضربها للنافذة ، وهو يقول :

ـ أشكرك يا سيادة المفتش .. أشكرك كثيرًا ..

وفى هذه المرة بدا له صوت قطرات المطر ممتعًا .. ممتعًا للغاية .

كوكتيل ٢٠٠٠
روايات مصرية للجيب
عملية صقر
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

إهداء

إلى كل الدماء الطاهرة ، التى روت زهرة النصر ، على رمال (سيناء) ..

إلى الأم الكبرى ..

إلى (مصر) ..

د. نبيل فاروق

الفصل الأوَّل

الخميس : ٢٧ سبتمبر ١٩٧٣ م / أوَّل رمضان ١٣٩٣ هـ : السابعة والنصف صباحًا

* * *

شرد جندى الصاعقة (حسن عبد العليم) ببصره وأفكاره ، وهو يجلس على الضفة الغربية لقناة (السويس) ، منهمكًا فى تنظيف مدفعه الرشَّاش ، كعادته كل صباح ، ومتأمِّلًا فى حنق لم تمحه أو تخفِّفه الأيام ، ذلك الحصن الدفاعى الحصين ، الذى يطلّ عليه من الضفة الشرقية ، والمعروف باسم (خط بارليف) ..

كانت نظراته تفيض بالكراهية والضيق ، وهو يتمنى من أعماقه لو تجاهل الأوامر الصادرة إليه ، وقفز فى مياه القناة ، ليسبح إلى الضفة الأخرى ، ويواجه ذلك الحصن ، ويحطِّمه ..

وأغلق عينيه ، وهو يتخيَّل نفسه واحدًا من أبطال الأساطير ، يطير عبر القنـاة ، ويمزِّق (خط بارليف) بيديه العاريتيـن ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة حالمة ، لم تلبث أن تلاشت ، عندما فتح عينيه مرة أخرى ، وطالعه العلم الإسرائيلى ، بنجمته السداسية الزرقاء ، وهو يرفرف فوق الحصن فى شماتة وتحدٍّ ، والتقى حاجباه فى مقت ، فأشاح بوجهه عن العلم ، وعاد يفرغ انفعالاته فى تنظيف مدفعه ، حتى سمع أحد زملائه يميل نحوه ، هامسًا :

ـ هناك رتبة وصلت إلى المعسكر .

رفعَ عينيه فى تكاسل ، يتأمّل السيارة (الجيب) المغطاة ، التى عبرت بوّابة المعسكر ، واتجهت نحو مكتب القائد مباشرة ، ثم هزّ كتفيه فى سخط ولا مبالاة ، وعاد ينهمك فى تنظيف مدفعه ..

كان يعلم أن الجنود يتبادلون مصطلح (رتبة) هذا ، عندما يتحدثون عن أى ضابط ، أكبر من الرائد ، إلا أنه لم يحاول حتى أن يسأل نفسه عن سبب وجود ضابط كبير فى معسكرهم ، الذى نادرًا ما يحظى بمثل هذه الزيارة ، بل اهتم بالتطلّع إلى مدفعه الذى صار يبرق كالفضة ، تحت أشعة الشمس ، ونهض يحمله فى عناية ، وهو يتجه إلى خيمته ، التى تضمه مع خمسة من زملائه ، وهو ينفض الرمال عن زيه العسكرى ، الذى يمتزج صفاره بخضاره ، شأن أزياء فرقة الصاعقة ، التى ينتمى إليها ، ولكنه لم يكد يبلغ الخيمة ، حتى وجد جاويش الفرقة يهرول نحوه ، قائلا :

ـ القائد يطلبك فى مكتبه يا (حسن) .

مطّ شفتيه فى ضيق وتكاسل ، وسار فى تراخ نحو مكتب قائد المعسكر ، وسمح له جندى الحراسة بالدخول على الفور ، مما أشعره بأن شيئًا غير مألوف يحدث فى المعسكر ، ولكنه ألقى هذه الفكرة خلفه ، وهو يدلف إلى المكتب ، ويرفع يده إلى رأسه ، وهو يدق كعبيه بالتحية العسكرية الرسمية ، قائلًا :

ـ الجندى (حسن عبد العليم) فى خدمتك يا سيد ...

توقفت العبارة فى حلقه ، الذى غصّ بها فى عنف ، مع اتساع



عينى (حسن) عن آخرهما ، وهما يكادان يقفزان من محجريهما ، و(حسن) يحدّق فى الجالسين داخل حجرة مكتب القائد ..

كان هناك شاب طويل القامة ، عريض المنكبين ، يحمل رتبة (نقيب) ، ويرتدى الزى المميّز لرجال الصاعقة ، وآخر متوسط الطول ، له شارب كث عريض ، يحمل رتبة ملازم أوّل ، وثالث نحيل ضئيل الجسم ، إلى درجة مثيرة للانتباه ، يحمل رتبة ملازم ثان ..

ولم يكن أحد هؤلاء سبب انفعال (حسن) ..

ولا حتى قائده المقدّم (إبراهيم حمّاد) ..

بل كان الرجل الخامس ، هو سر كل ما أصابه ..

كان رجلا مألوفًا ، رأى (حسن) وجهه أكثر من مرة فى الصحف ، يحمل رتبة لم يحلم أبدًا برؤيتها وجهًا لوجه ، مما جعله ينفض عن نفسه دهشته بسرعة ، ويؤدى التحية العسكرية فى عنف ، وكعباه يرتطمان ببعضهما البعض بدوى هائل ، أمام الرجل الخامس ..

وكان هذا الخامس هو الوزير ..

وزير الحربية المصرى بنفسه ..(★)

★ ★ ★

(★) فى ذلك الحين كان وزير الدفاع يعرف باسم (وزير الحربية) .

تأمّل وزير الحربية بعينيه الفاحصتين (حسن) فى هدوء وقال بذلك الصوت الحاسم ، الذى يعتاده من فى مثل منصبه :

ـ استرح يا (حسن) .

كان هذا الأمر مناسبًا للموقف تمامًا ، فقد كادت عضلات (حسن) تتمزّق ، من شدة التوتر والانقباض ، فى وقفته العسكرية المشدودة ، وأرخاها جندى الصاعقة بعض الشىء ، والوزير يتابع فى اهتمام :

ـ أنت إذن (حسن عبد العليم) .. تقاريرك تقول : إنك شجاع ومقاتل شرس ، لا يعرف الخوف طريقه إلى قلبه ، ولا يهاب الموت .. وهذا أيضًا ما قاله عنك رؤساؤك يا (حسن) ، بالإضافة إلى أنك شاركت فى عدد من العمليات الناجحة ، فى حرب الاستنزاف ، وعبرت إلى الشرق أكثر من مرة ، وكنت عضوًا فعّالاً ، فى عملية تدمير مخزن الذخيرة الرئيسى للإسرائيليين ، فى الشهر الماضى .

تساءل (حسن) فى دهشة عن السبب ، الذى يدعو وزير الحربية بنفسه إلى الحضور للمعسكر ، وقول هذا ، وتصوّر لحظة أنهم سيمنحونه وسامًا ، أو ترقية استثنائية ، إلا أن كل هذا لم يكن مبرّرًا كافيًا ؛ لذا فقد أبعد هذا عن تفكيره ، واكتفى بالإصغاء إلى الوزير ، الذى قدّمه له الشاب العريض المنكبين ، وهو يتابع :

ـ هذا هو قائدك الجديد يا (حسن) .. النقيب (خالد فهمى) .. ستطيعه حتى الموت .. هل تفهم ؟

أومأ (حسن) برأسه إيجابًا ، دون أن ينبس ببنت شفة ، والحيرة تتعاظم فى أعماقه أكثر وأكثر ، فى حين واصل الوزير ، وهو يشير إلى صاحب الشارب الكث :

ـ وهذا الملازم أوّل (عمرو حشّاد) ، صاحب أشهر عملية انتحارية ، فى أثناء محاولة العدو الفاشلة ، لاحتلال جزيرة (شدوان) .

ثم وضع يده على كتف الشاب النحيل الضئيل ، واستطرد فى لهجة تحمل من حنان الأبوة ، أكثر مما تحمل من الحزم :

- وهذا الملازم ثان (محمد الحلوجى) .. أكثر من يصلح للمهمة .

زوى (حسن) ما بين عينيه ، وهو يتساءل فى حيرة عن طبيعة تلك المهمة ، التى أشار إليها الوزير ، ولكن ذهنه لم يتصوَّر أكثر من كونها عملية جديدة ، من عمليات حرب الاستنزاف ؛ لذا فقد أدهشه تمامًا قول الوزير الحازم :

- أمامك عشر دقائق فحسب ، للاستعداد التام وحزم أمتعتك الضرورية يا (حسن) ، فسترحل على الفور .

ضرب (حسن) كعبيه ببعضهما البعض فى قوة ، ورفع يده بتحية عسكرية شديدة ، وقال بصوت جهورى ، حاول أن يجعله جديرًا بالوزير نفسه :

- فى خدمتك يا سيادة الوزير .

ودار على عقبيه دورة مثالية ، وعاد إلى خيمته ، وراح يحزم أمتعته ، وقد امتلكته حاسة المحترف ، فأطبق شفتيه ، ولم يجب سؤال أقرب أصدقائه ، عما حدث فى مكتب القائد .

وكانت هذه طبيعته ..

* * *

تجاوزت سيارة الوزير حدود محافظة (السويس) ، دون موكب رسمى أو حراسة متميِّزة ، وتجاهلت الطريق الأسفلتى الممهَّد ،

لتشق طريقها عبر رمال الصحراء ، ولكن الرجال الأربعة ، الذين اعتادوا تلك الأمور ، التى تبدو لغيرهم غير مألوفة ، ظلوا صامتين ، يراقب بعضهم البعض فى حذر ، ويحاول كل منهم أن يستشف ما يدور فى عقول الآخرين ، حتى قطعت السيارة شوطًا طويلًا فى قلب الصحراء ، بحيث لم يعد أحدهم يرى سوى الرمال الصفراء الساخنة ، تحيط بالسيارة من كل جانب ، فهمس الملازم (محمد) :

- من المؤكَّد أنها واحدة من أخطر عمليات حرب الاستنزاف ؛ فليس من السهل أن يباشر وزير الحربية بنفسه مهمة خاصة .

وافقه الجميع بإيماءة من رءوسهم ، وهمس النقيب (خالد) :

- لو أردتم رأيى ، فالحرب على الأبواب .

ظهر الشك على وجوههم ، وقال الملازم أوَّل (عمرو) :

- لن أشغل عقلى بالتفكير فى هذا الأمر ، ولكننى لا أشك لحظة واحدة ، فى أننا بصدد أخطر مهمة انتحارية فى حياتنا كلها .

شعر (حسن) ببعض الضيق ، وهو يشيح بوجهه عنهم ، فتقارب الرتب بين الضباط الثلاثة كان يسمح لهم بتبادل الحديث فى بساطة ، أما هو فمجرَّد جندى ، عليه أن يطبق شفتيه ، ويلزم الصمت ، ويحمد الله (سبحانه وتعالى) ، على وجود ذلك الحاجز الزجاجى السميك ، الذى يفصلهم عن المقعدين الأماميين للسيارة ، حيث يجلس الوزير وسائقه ، ولكن الدهشة لم تلبث أن وجدت طريقها إلى نفسه ، عندما وضع الملازم (محمد) يده على كتفه ، وسأله فى بساطة :

- ما رأيك أنت يا (حسن) ؟

التفت إليه (حسن) فى دهشة ، ووجد ثلاثتهم يتطلّعون إليه فى اهتمام ، وكأنهم نسوا أو تناسوا الرتب تمامًا ، وأصبح رأيه يهمهم كثيرًا ، فشعر ببعض الحرج ، وتنحنح مغمغمًا فى ارتباك :

ـ إننى أويد رأيكم ياسيِّدى ، وأتمنى لو أن سيادة النقيب (خالد) على حق .

شرد الأربعة بأفكارهم ، بعد عبارة (حسن) ، وغمغم (عمرو) ، وهو يتنهَّد فى عمق :

ـ الحرب .. يا له من أمل !

كاد الحديث يمتدّ ويتشعّب بينهم ، لولا أن توقفت السيارة فجأة ، وسمعوا وزير الحربية يقول بلهجة آمرة :

ـ هيا يا رجال .. لقد وصلنا .

قفزوا من السيارة ، واصطفوا تبعًا لرتبهم ، وعقد وزير الحربية كفيه خلف ظهره وهو يسير أمامهم فى بطء ، ويتأمّلهم فى إمعان ، ثم أشار إلى مبنى قريب من طابقين ، يكاد يختفى بلونه الأصفر وسط رمال الصحراء ، وقال :

ـ هنا ستتلقون الدرس الأول .

ثم أدار ظهره لهم ، وسار نحو المبنى ، فتبعوه فى صمت ، وكل منهم يسأل نفسه فى حيرة .

أى درس هذا ؟.

ولم يتأخر الجواب ..

★ ★ ★

كانت القاعة التى انتقلوا إليها داخل المبنى ، صغيرة ، تشبه الفصول الدراسية البسيطة ، وجلس الرجال الأربعة على مقاعد عادية ، فى مواجهة منضدة طويلة ، جلس خلفها الوزير ، إلى جوار رجل صارم الملامح ، يحمل على كتفيه رتبة اللواء ، قدمه الوزير إليهم ، قائلًا :

ـ اللواء (حسين قدرى) .. قائد العمليات الخاصة .

همهموا بكلمات غير مفهومة ، والتقى حاجبا اللواء (حسين) فى صرامة ، وكأنما لا يروق له هذا الأسلوب ، الذى يتجاوز التقاليد العسكرية ، فى حين تابع الوزير :

ـ من المؤكَّد أنكم تشعرون بدهشة حقيقية ؛ لأننى أباشر هذه المهمة بنفسى ، ولكن الواقع أنها مهمة بالغة الحساسية والخطورة ، ولقد أمر الرئيس (السادات)(★) بضرورة إحاطتها بأكبر قدر ممكن من السرية ، إذ أن نجاحها وفشلها قد يتوقّف عليهما نجاح وفشل الحرب القادمة .

كانت أوّل إشارة من الوزير للحرب القادمة ، فخفقت قلوب الرجال الأربعة ، وانتبهت حواسهم كلها فى لهفة وحماس ، والوزير يستطرد :

ـ لهذا تم اختياركم بدقة بالغة ، وبناءً على عدد من الشروط

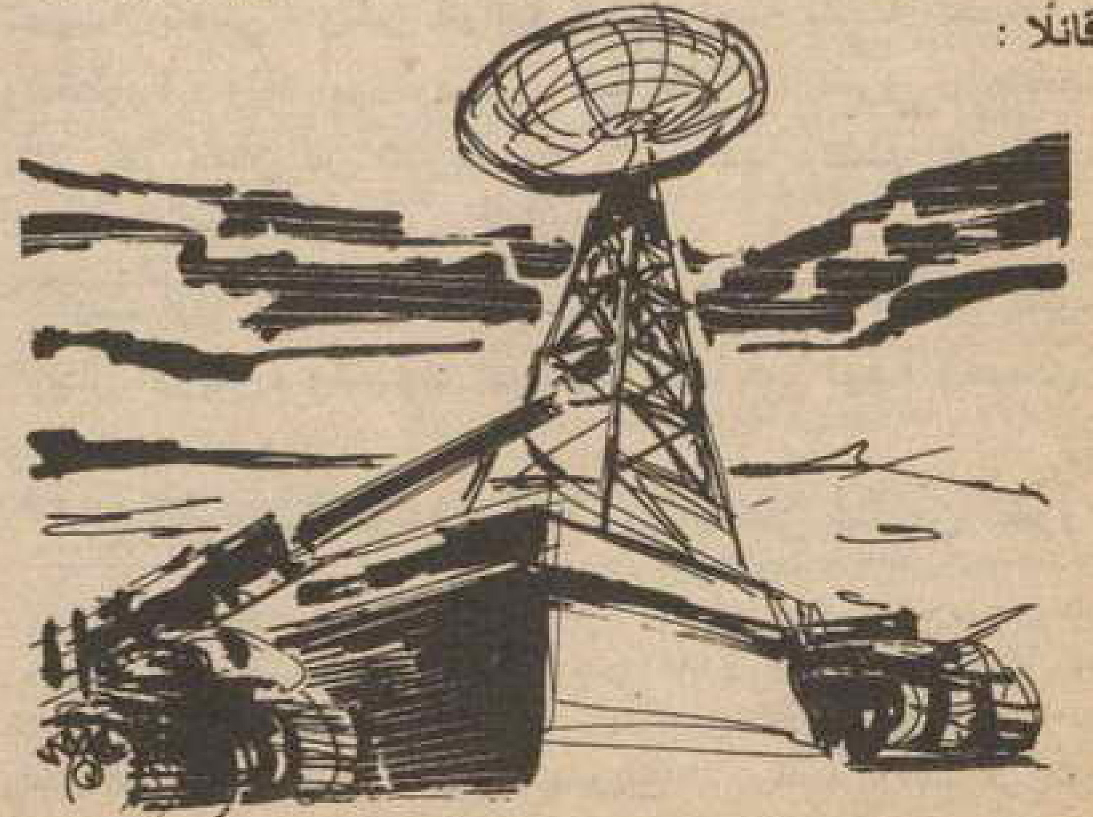
(★) (محمد أنور السادات) : (١٩١٨ ـ ١٩٨١م) : سياسى مصرى ، ورئيس (جمهورية مصر العربية) ، من ١٩٧٠م ، وحتى ١٩٨١م ، وأحد الضباط الأحرار ، ولد بقرية (ميت أبو الكوم) بمحافظة (المنوفية) ، تخرّج من الكلية الحربية عام ١٩٣٨م ، واعتقل أكثر من مرة ، ثم شارك فى ثورة يوليو ١٩٥٢م ، وقاد حرب النصر فى أكتوبر ١٩٧٣م ، ثم اغتاله (خالد الإسلامبولى) ، فى ٦ أكتوبر ١٩٨١م .

والمواصفات ، أهمها خبرتكم فى العمل على أرض (سيناء) ، وإجادتكم العبرية ، وملامحكم التى تجمع ما بين الملامح الشرقية ، مع لمحة غربية ، تجعلكم أشبه باليهود الشرقيين .

لم ينبس أحدهم ببنت شفة ، وهم يستمعون فى انتباه تام ، فاعتدل الوزير ، وأشار إلى اللواء (حسين) ، مستطردًا :

ـ قائد العمليات الخاصة سيشرح لكم الأمر بالتفصيل .

اعتدل اللواء (حسين) فى مجلسه ، والتقط نفسًا عميقًا ، زاد ملامحه حدة وصرامة ، وهو يشير بيده إشارة مبهمة ، انطفأت إثرها أضواء القاعة ، وتألق ضوء فى مؤخرتها ، لتسقط صورة ضوئية على شاشة بيضاء . نهض اللواء (حسين) يشير إليها ، قائلًا :



ـ هذا الذى ترونه أمامكم هو الحصن الإسرائيلى ، المقام على الضفة الشرقية لقناة (السويس) ، والمعروف باسم (خط بارليف) ، وهو ، بحسب ادعاء الإسرائيليين ، صنع إلى درجة تؤهله لتحمّل هجوم بالقنابل الذرية ، ولكن الحقيقة أنهم غير واثقين من مناعته هذه ، بدليل أنهم يستخدمون محطة الإنذار (عاين) .

تبدلت الصورة ، لتظهر صورة أخرى لبرج معدنى ضخم ، يعلوه رادار كبير ، وعند قاعدته مبنيان ، وعلى جانبيه مصطبتان ، تقف فوق كل منهما دبّابة ، وكل دبّابة تصوّب مدفعها إلى عكس اتجاه مدفع الدبّابة الأخرى ، وهناك مبنى آخر مستقل ، ويحيط بالمنطقة كلها سور ضخم من الأسلاك الشائكة ، له مدخل واحد ، يقف على حراسته جنديان مسلحان ..

وبكل جديته وصرامته ، قال اللواء (حسين) :

ـ هذه هى المحطة (عاين) ، وهى أحدث إنتاج للتكنولوجيا الأمريكية ، ويطلقون عليها اسم محطات الإنذار المبكر ، ولا يوجد منها حاليًا سوى هذه النسخة ، التى يختبرها الأمريكيون ـ حسبما يبدو ـ فى الجيش الإسرائيلى ، وهذه المحطة يمكنها رصد تحركات جيشنا أو طائراتنا ، منذ خروجها من مطاراتها ، وإرسال إنذار خاص إلى وسائل المقاومة والدفاع ، للتصدى لأى هجوم منا .. مما يجعلها حجر عثرة ، فى طريق قيامنا بأى هجوم مفاجئ .. أو بمعنى أدق .. هى أحد موانع قيام الحرب الشاملة .

بدأ الحنق فى وجه وعيون الرجال الأربعة ، وهم يتطلّعون إلى صورة المحطة ، واللواء (حسين) يتابع :

ـ وما ترونه فى الصورة ليس المحطة نفسها ، فالمعدات الفعلية تختفى هناك ، تحت الأرض ، على عمق لا يعلمه أحد منا ، وهذه المعدات هى الخطر الفعلى .. إنها عين الصقر ، بالنسبة للقيادة الإسرائيلية .

ثم اعتدل ، وأدار عينيه إليهم ، مستطردًا فى حزم :

ـ ومهمتكم يا رجال هى الوصول إلى قلب المحطة ، وتدميرها .

خفقت قلوبهم مرة أخرى فى عنف ، وتردد سؤال فى أعماقهم ، منعوه فى صعوبة من القفز إلى شفاههم ، فى حين أضاف قائد العمليات الخاصة ، فى لهجة بدت وكأنها اعتذار :

ـ والمشكلة لا تكمن فى تدمير المحطة فحسب ، وإنما فى الموعد المحدود للقيام بالعملية .. فلابد من نسف المحطة فى وضح النهار .. وبالتحديد فى الواحدة ظهرًا ، من يوم السبت ، السادس من أكتوبر .

انطلق من بين شفتى الملازم (محمد) صفير طويل ، ثم انتبه فجأة إلى أن هذا يخالف القواعد العسكرية تمامًا ، فتضرج وجهه خجلًا ، وارتبك فى شدة ، وهو يضم شفتيه فى قوة ، إلا أن قائد العمليات تجاهل الأمر تمامًا ، وقال :

ـ الأمر يبدو الآن مستحيلًا ، ولكن خبراؤنا درسوه جيدًا ، وتوصلوا إلى خطة ، تجعل الأمر ممكنًا ، إلى حد ما .

وهنا تدخل وزير الحربية ، وقال :

ـ هذا لا يعنى أنها مهمة بسيطة .. بل أصارحكم القول أن هذه

العملية ، هى أخطر عملية تقومون بها ، فى حياتكم كلها ، والخبراء يقولون أن نسبة نجاحكم لا تتجاوز الخمسة فى المائة ، ولكن هذا النجاح قد يعنى النصر لنا ، فى معركتنا الحاسمة .. من منكم يرغب فى التراجع الآن .

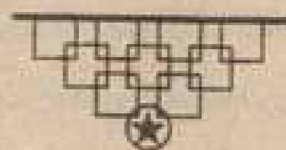
أجاب النقيب (خالد) فى حسم :

ـ لا أحد .

وافقه الباقون بإيماءة من رءوسهم ، والحزم يملأ ملامحهم ، فتبادل الوزير نظرة ارتياح مع قائد العمليات الخاصة ، ثم عاد يواجه الرجال الأربعة ، قائلًا بابتسامة واثقة :

ـ بالمناسبة يا رجال .. ستحمل هذه العملية اسمًا كوديًا خاصًا .. اسم (صقر) .. (عملية صقر) .

وخفقت القلوب مرة أخرى .



الفصل الثانى

الإثنين : أوّل أكتوبر ١٩٧٣ م / ٥ رمضان ١٣٩٣ هـ : الثانية عشرة والنصف ظهرًا

★ ★ ★

انعكست أشعة الشمس على رمال الصحراء ، فزادت من حرارة الجو ، فى ذلك الوقت من اليوم ، وازداد جفاف شفاه الرجال الأربعة ، وهم ينطلقون فى سيارة عسكرية من طراز (جيب) ، تحمل على جانبها نجمة سداسية إسرائيلية ، وكل منهم يرتدى ذلك الزى الزيتونى ، المميَّز للجيش الصهيونى ، والصمت يجمع بينهم ، بسبب الشفاه الجافة الملتصقة ، والأجواف الملتهبة من شدة الحر والعطش . وذلك التوتر الذى يختفى فى أعماقهم ، ولا ينعكس على ملامحهم وتصرفاتهم ..

وتعلّقت أبصار الرجال الأربعة بالمبنى ذى البرج المرتفع ، وبالرادار الذى يتحرّك فوقه بإيقاع منتظم ، وهم يقتربون منه بسرعة ، قبل أن يوقف صاحب الشارب الكث السيارة ، أمام ثلاثة جنود يحملون المدافع الرشّاشة ، ويرتدون الزى المميَّز للشرطة العسكرية الإسرائيلية ، ثم يقدّم إليهم بطاقة صغيرة ، داخل غلاف من البلاستيك ، وهو يقول فى عبرية سليمة :

ـ رف سيرين (إلياهو بن عسار)(*) ، من إدارة التفتيش المركزية .

ثم ناول الجندى ورقة تشبه الأوراق الرسمية ، فحصها الجندى فى عناية ، وهو ينقل بصره بين الصورة الواضحة ، فى البطاقة العسكرية ، ووجه قائد السيارة ، قبل أن يسأله فى صرامة ، على الرغم من فارق الرتب الواضح :

ـ كلمة السر .

أجابه ذو الشارب الكث :

ـ شالوم .

وهنا خفض الجندى مدفعه الآلى ، وأدى التحية العسكرية ، وهو يقول فى احترام :

ـ فى خدمتك رف سيرين (إلياهو بن عسار) .

هبط صاحب الشارب الكث من السيارة فى هدوء ، ويتبعه الرجال الثلاثة ، بعد أن عبرت السيارة أبواب المعسكر ، وامتدت أيديهم إلى أسلحتهم ، ولكنها تسمّرت فى الهواء ، عندما ارتفع صوت صارم ، يقول :

ـ خطأ .

اعتدل الرجال الأربعة فى وقفة عسكرية ثابتة ، وكذلك فعل جنود الحراسة الثلاثة ، فى حين تقدّم من الجميع رجل يحمل رتبة اللواء ، وهو يقول فى حدة :

(*) رف سيرين : رائد .. باللغة العبرية .

ـ من الممكن أن تكلفكم هذا حياتكم ، ويتسبّب فى فشل الخطة كلها .

لم يكن هذا الرجل سوى اللواء (حسين قدرى) ، قائد العمليات الخاصة ، والذى يشرف بنفسه على هذه التدريبات ، التى تتم فى الصحراء الغربية المصرية ، عند نموذج خاص ، يشبه تمامًا الجزء الخارجى من المحطة الإسرائيلية (عاين) ، ولقد سأله (عمرو حشاد) صاحب الشارب الكث :

ـ فيم أخطأنا هذه المرة يا سيِّدى ؟

أجابه اللواء (حسين) فى صرامة :

ـ لقد هبط الرجال دون حمل أسلحتهم ، كما أنك تقود السيارة بنفسك ، وهذ لا يتفق مع تصرفات الإسرائيليين .. وخطأ كهذا يكفى لكشف أمركم جميعًا .. لابد لكم من نسيان مصريتكم ، والتعامل كما يفعل هؤلاء الصهاينة تمامًا .. إنكم تتدربون فى منطقة تشبه مسرح العملية تمامًا .. حتى فى الكثبان الرملية المحيطة بها ، وكلكم تتحدثون العبرية فى طلاقة ، ولكن هذه الأمور الصغيرة تصنع فارقًا ضخمًا .. المفروض أن يجلس (عمرو) فى المقعد الأمامى ، بصفته الأكبر رتبة ، ويقود (حسن) السيارة ، ويجلس (خالد) و(محمد) فى المقعد الخلفى ، وعند وصولكم إلى المحطة يبرز (حسن) أوراق (عمرو) للجندى ، وعند الهبوط من السيارة يهبط الجنود أوّلًا ، وهم يحملون أسلحتهم ، ثم يهبط الضابط فى النهاية .. هل فهمتم ؟

أجابه (خالد) :

ـ تمامًا ياسيِّدى .. اطمئن ..

رفع (محمد) يده ، معلنًا رغبته فى الحديث ، فأشار إليه قائد العمليات ، قائلًا :

ـ ماذا لديك ؟

سأله (محمد) :

ـ عفوًا ياسيِّدى ، ولكن ساعة الصفر توافق أحد أيام السبت ، كما أنها فى الوقت نفسه عيد الغفران (كيبور) ، بالنسبة لليهود ، فهل من الطبيعى أن تخرج دورية إسرائيلية للقيام بتفتيش روتينى ، فى ذلك اليوم ، على الرغم من أن الديانة اليهودية لا تحبذ العمل فى يوم السبت ؟

مطَّ اللواء (حسين) شفتيه ، وقال :

ـ ملاحظة ذكية يا(محمد) .. صحيح أن اليهود لا يشعرون بالارتياح ، عندما يعملون فى أيام السبت ، ولكن القيادة العسكرية لديهم تستثنى الإجراءات العسكرية من هذا ، فهى أخطر من أن تؤجّل .

ثم شدّ قامته ، وقال فى حزم قيادى :

ـ والآن هيا يا رجال .. سنجرى تجربة أخرى للعملية منذ البداية .. وأرجو ألا تكون هناك أخطاء هذه المرة ، فساعة الصفر تقترب .. تقترب فى سرعة ..

★ ★ ★

مرة أخرى شعر (حسن) بالقلق والدهشة ، عندما حان موعد النوم ، ووجد نفسه يشارك الضباط الثلاثة حجرة نوم واحدة ..

أشياء كثيرة تغيّرت ، منذ انتقل إلى هنا ..

أشياء لم يتصوّر حدوثها أبدًا فى حياته ..

إنه يحيا مع الضباط الثلاثة فى ألفة وبساطة ، وروح المودة تسود بينهم ، مع سقوط قيود فارق الرتب ، وكأن الجميع يشعرون فى قرارة أنفسهم أنهم فى طريقهم لأداء مهمة بالغة الخطورة ، قد تكون فيها نهايتهم ، فلا داعى لإفساد لحظاتهم الأخيرة بقواعد روتينية وقوانين جامدة ..

كان النقيب (خالد) رصينًا هادئًا ، يبدو وكأنه دائم الانشغال والتفكير ، ولا يبتسم إلا نادرًا ، وللحظات قصيرة ، أما الملازم أوّل (عمرو) ، فهو مرح بطبعه ، كثير السخرية ، وبالذات عندما تزداد المتاعب والمخاطر ، والملازم (محمد) بسيط للغاية ، ويعدّ نموذجًا مثاليًا لتسعين فى المائة من المصريين .. يتحرّك ، ويتحدّث ، ويأكل ، ويشرب فى تلقائية وبساطة ، ويجيد الدعابة وإلقاء الفكاهات ، حتى فى أحلك اللحظات والمواقف ..

ابتسم (حسن) ، عندما وصل بتفكيره إلى هذه النقطة ، وتنهّد وهو يقول فى بساطة أدهشته شخصيًا :

ـ أظن (خالد) محقًّا .. الحرب ولا ريب على الأبواب .

سأله (عمرو) فى بساطة ، وهو يشعل سيجارته :

ـ لماذا تقول هذا ؟

اعتدل وهو يحرّك كفيه حركات غير ذات معنى ، قائلًا :

ـ ما داموا يولون تحطيم محطة الإنذار المبكّر هذه كل الأهمية ، ويصرّون على ضربها فى موعد محدود ، فلا شك أن قواتنا تعدّ العدة لضرب (خط بارليف) ، أو مهاجمته بشكل أو بآخر .. ولابد فى هذه الحالة من نسف المحطة فى الموعد المطلوب .

قال (خالد) ، وهو يومئ بسبّابته :

ـ هذا صحيح ، واهتمام وزير الحربية بالأمر ، بناءً على أوامر الرئيس (السادات) ، يؤكّد قولك هذا .. بل يمكننى الجزم بأن الحرب الشاملة ستبدأ بعد ساعة واحدة على الأكثر ، من نسف المحطة .

سيطر الوجوم على جو الغرفة ، مع ذلك الصمت الثقيل ، الذى ران عليها ، حتى قطعه (محمد) بهدوء مدهش :

ـ فلنتأمل هذا .. إننا نقاتل فى حرب الاستنزاف منذ أربع سنوات ، دون أن تلوح رياح الحرب .

غمغم (عمرو) :

ـ لا تتعجّل يا رجل .. لكل شىء أوانه .

عاد الصمت يلفهما بغلافه ، حتى قال (محمد) :

ـ ماذا كنت تعمل ، قبل التحاقك بالجيش يا (حسن) ؟

أجاب (حسن) فى اختصار :

ـ مهندس زراعى .

هتف (محمد) :

ـ حقًّا .. يا لها من مفاجأة !.. وماذا عنك يا سيادة النقيب .

تنهّد (خالد) ، وقال :

ـ هذه مهنتى ؛ فأنا ضابط محترف ، تخرّجت فى الكلية الحربية .

وقال (عمرو) فى سرعة :

ـ هذا ينطبق علىَّ أيضًا .

واعتدل (خالد) يسأل (محمد) :

ـ وماذا عنك أنت ؟

ابتسم (محمد) ، وقال فى هدوء :

ـ كنت راقصًا .

حدَق الجميع فى وجهه بدهشة ، وقال (عمرو) :

ـ كنت ماذا ؟!

أجابه (محمد) فى بساطة :

ـ كنت راقص باليه ، وكثيرًا ما مارستُ عملى ، على خشبة الأوبرا ، و ...

قاطعه (حسن) ، وهو يهتف فى استنكار :

ـ راقص باليه ؟!

ثم شعر بخطأ هذا عسكريًا ، فتراجع فى ارتباك :

ـ معذرة يا سيادة الملازم ، ولكن ..

قاطعه (محمد) بابتسامة هادئة .

ـ لا عليك .. لست أخجل من مهنتى ، فأنا أحبها ، وكنت أتمنى مزاولتها الآن ، لولا التحاقى بالجيش كضابط احتياط ، عقب حرب يونيو ، عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين .

شعر (حسن) ببعض السخرية والاستهجان فى أعماقه ، وتساءل عن السبب ، الذى يدعو الجيش إلى الاستعانة براقص باليه ، فى

مهمة انتحارية كهذه ، ولكنه لم يلبث أن هزَّ كتفيه ، وكأنما الأمر لا يعنيه ، ورأى (خالد) يستلقى على فراشه ، ويقول وكأنه يحاول الابتعاد عن الموضوع :

ـ ما رأيكم يا رفاق .. هل أجدنا هذه المرة ؟

تثاءب (حسن) عمدًا ، وقال متناومًا :

ـ بالطبع .. لم تكن هناك أخطاء فى المرة الأخيرة ، ولكن المهم هو التنفيذ الفعلى .

مدّ (عمرو) يده ، وأطفأ المصباح الذى يعلو فراشه ، وهو يتثاءب بدوره ، قائلًا :

ـ نعم المهم هو التنفيذ الفعلى .

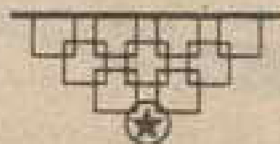
سأل (حسن) ، وهو يعدّل الوسادة تحت رأسه :

ـ أهناك تجارب أخرى غدًا ؟

ولكنه لم يتلقَ جوابًا ، فهز كتفيه كعادته ، وهمس لنفسه فى سخرية :

ـ راقص باليه ؟!..

ثم لم يلبث أن لحق برفاقه ، وغاص الجميع فى سبات طويل .. وعميق ..



الفصل الثالث

الأربعاء : ٣ أكتوبر ١٩٧٣ م / ٧ رمضان ١٣٩٣ هـ : الحادية عشرة والنصف ، قبل منتصف الليل .

★ ★ ★

ارتفع صوت الهليوكوبتر الحربية المصرية ، وهى تشقّ طريقها فى الظلام ، عبر قناة السويس ، إلى الضفة الشرقية ، حتى أن الملازم (عمرو) تساءل فى توتر ، وهو يقبض على مدفعه فى قوة ، كيف لا يشعر الإسرائيليون بالهليوكوبتر ، وهى تخترق



حاجزهم الدفاعى على هذا النحو ؟.. إلا أنه لم يلبث أن تذكّر أن المصريين يدرسون دائمًا خطوط الطيران السرية ، وينتقونها فى عناية ، مع أنسب الأوقات لعبور القناة ، بأقل قدر من الخطر ..

كان يشعر فى أعماقه بتوتر شديد ، على الرغم من أنها ليست المرة الأولى التى يعبر فيها القناة إلى أرض (سيناء)(*) ، فى مهمة انتحارية ..

وفى سرعة ، راح عقله يسترجع آخر حديث لهم ، مع اللواء (حسين قدرى) ..

كانت المرة الأولى ، التى يتخلّى فيها الرجل عن صرامته ، ويتحدّث إليهم بحنان واضح ، وهو يراجع معهم الخطة ، وينصحهم بضرورة توخى الحذر ، منذ لحظة هبوطهم فى الأرض المصرية المحتلة ، فى منتصف ليل الثالث من أكتوبر ، وحتى يمكنهم بلوغ هدفهم (بإذن الله) ، ظهر السادس من أكتوبر ..

وبعدها حضر وزير الحربية ، وصافحهم يدًا بيد ، ونقل إليهم تحية الرئيس (أنور السادات) ، وتمنى لهم النجاح ، مؤكدًا مرة أخرى أهمية العملية وخطورتها ..

ثم صعد الجميع إلى (الهليوكوبتر) ..

(*) سيناء : محافظة فى الشمال الشرقى لـ(مصر) ، عاصمتها (العريش) ، وتشمل شبه جزيرة (سيناء) ، فى شكل مثلث ، قاعدته شمال ساحل البحر الأحمر ، إلى جنوب رأس (محمد) ، وبها أعلى جبال (مصر) ، فى (سانت كاترين) ، ولها شهرتها التاريخية والدينية والأثرية ، ففيها جبل (موسى) ، ودير (سانت كاترين) ، وفيها وقعت عشرات المواقع الحربية ، على مدى التاريخ .

وبدأت المهمة ::

سرت فى جسده قشعريرة باردة ، عندما بلغ هذه النقطة من تفكيره ، ورفع رأسه يراقب وجوه زملائه ..

كانت وجوههم جامدة ، لا تشف عن التوتر الشديد فى أعماقهم ، وهم يعلمون أنهم قد عبروا الحدود الآمنة بالفعل ، وأصبحوا ينتظرون الموت فى كل لحظة ، داخل الأرض المحتلة ، وكلهم يحبسون أنفاسهم ، مع انطلاق الهليوكوبتر فى خط متعرّج ، تمت دراسته مسبقًا ، مستترة دومًا بالتباب الرملية ، والكثبان المرتفعة ، ومبتعدة بقدر الإمكان عن نقاط الحراسة والرادار ، متجهة نحو هدفها ..

وحاول (عمرو) إزالة بعض هذا التوتر ، فغمغم مبتسمًا :

ـ يبدو أننا سنواجه أخيرًا عملية حقيقية يا رفاق .

حجب هدير الهليوكوبتر الجزء الأكبر من عبارته ، وتلاشى الباقى وسط التوتر ، الذى يخيم على الجميع ، حتى خُيِّل إليه أن أحدًا لم يسمعه ، لولا أن قال (خالد) ، بعد فترة طويلة من الصمت :

ـ نعم يا (عمرو) .. سنواجه هذه المرة عملية حقيقية .. الثمن الوحيد للخطأ فيها هو الموت .

ران الصمت مرة أخرى على المكان ، إلا من صوت محركات الهليوكوبتر ، دون أن يعلّق أحدهم على العبارة ، ثم قطع (خالد) هذا الصمت ، وهو يقول :

ـ إننا نقترب من نقطة الهبوط يا رفاق .. تذكّروا منذ هذه

اللحظة أنكم ترتدون الثياب العسكرية الإسرائيلية ، وتحملون أسلحة تماثل تلك التى يحملها الإسرائيليون ، وعليكم منذ لحظة الهبوط أن تنسوا تمامًا لغتكم العربية ، فالحديث سيكون طوال الوقت بالعبرية .. المفروض طبقًا للخطة أن نهبط فى منتصف الليل تمامًا ، وبعد ساعة من الهبوط ، وفى تمام الواحدة ، سيصل (حمدان) ، وهو واحد من بدو (سيناء) ، يعمل لحساب المخابرات المصرية مع ابنته ، وسيحضر لنا سيارة (جيب) عسكرية إسرائيلية ، وبعض الأوراق اللازمة ، لدخول محطة الإنذار المبكّر .

قال (عمرو) ، والقلق يملأ نفسه :

ـ كل هذا نحفظه عن ظهر قلب ، ولكن الشىء الذى يقلقنى حقيقة ، هو أننا سنهبط فى (سيناء) ، مع اللحظات الأولى للرابع من أكتوبر ، فى حين المفروض أن ننفذ الخطة فى ظهر السادس من أكتوبر ، ويومان فترة طويلة فى مواجهة الخطر ، واحتمالات الخطأ فيهما كبيرة ، مما قد يتسبّب فى فشل المهمة كلها .

تنهّد (خالد) ، وقال :

ـ هذا صحيح ، ولكنهم رأوا ضرورة وجودنا الآن ، حتى يمكننا التآلف مع المكان ، وحتى لا تضيع فرصة عبور حرجة كهذه ، فالغيوم تخفى القمر الليلة ، وتحجب ضوءه ، ثم إن ..

قاطعه فجأة أزيز متصل ، انبعث من مصباح أحمر فوق رأسه ، فاعتدل فى مجلسه ، وقال فى انفعال :

ـ سنؤجل مناقشة هذه النقطة لما بعد ، فقد حانت لحظة الهبوط .

نهض كل منهم ، وثبت حقيبته فوق ظهره ، وحمل مدفعه الآلى ، وراجع حزام خوذته ، وقال خالد :

ـ ستهبط الهليوكوبتر إلى ارتفاع ثلاثة أمتار ونصف المتر ، وسنقفز منها بترتيب الرتب .. الرتبة الأعلى أولًا ..

فتح باب الهليوكوبتر الخلفى ، وألقى نظرة على الظلام الممتدّ إلى ما لا نهاية ، وملأ صدره بنفس عميق ، ثم قرأ الشهادتين فى أعماقه ، و ...

وقفز ..

وارتعد جسد (عمرو) لجزء من الثانية ، عندما شاهد (خالد) يقفز من الهليوكوبتر ، ثم لم يلبث أن شدّ قامته ، وقفز بدوره ..

كان الهواء باردًا كالثلج ، وهو يرتطم بوجهه ، وخُيّل إليه أنه يهبط فى بئر بلا قرار ، ثم لم يلبث أن تبيّن الرمال الداكنة ، على بصيص من ضوء القمر ، فضمّ ركبتيه إلى صدره ، واحتضن سلاحه فى قوة ، وغاص برأسه بين كتفيه ، كما تعلّم فى تدريبات الصاعقة ، ولم تكد قدماه تلمسان الأرض ، حتى تكوّر على نفسه ، وترك جسده يتدحرج على الرمال ، ثم هبّ واقفًا على قدميه ..

وانتفض جسده كله فى قوة ..

كان يشاهد (محمد) ، الذى يستعد للقفز بدوره ، وخلفه (حسن) ..

ولكن ليس هذا سبب تلك الانتفاضة ..

إنما كان سببها يأتى من خلف تبة قريبة ، على هيئة هليوكوبتر ..

هليوكوبتر إسرائيلية ، ظهرت فجأة ، لتعترض طريق الهليوكوبتر المصرية ..

وطريق العملية كلها ..

★ ★ ★

كانت مفاجأة مزدوجة ..

لقد فوجئ قائد الهليوكوبتر المصرية ورجال الصاعقة الأربعة بالهليوكوبتر الإسرائيلية ، فى نفس الوقت الذى بوغت فيها الطيّار الإسرائيلى بهم ..

وفى مبادرة سريعة ، ضغط الطيّار المصرى زر إطلاق مدفعى طائرته ، وهو يهتف بـ(محمد) و(حسن) :

ـ اقفزا .. هيا .. بسرعة ..

انطلقت رصاصات مدفعيه نحو الهليوكوبتر الإسرائيلية ، التى ارتفعت بسرعة ، لتفادى الطلقات ، ثم دارت حول نفسها ، فى محاولة للهجوم على قرينتها المصرية ، فى نفس اللحظة التى قفز فيها (محمد) من الهليوكوبتر ..

وشاهد (حسن) الهليوكوبتر ، والطيّار المصرى يصيح به :

ـ اقفز يا رجل .. اقفز قبل فوات الأوان ..

ولكن (حسن) رفع مدفعه ، وأطلق رصاصاته نحو الهليوكوبتر الإسرائيلية ، فى نفس اللحظة التى انطلقت فيها رصاصات مدفعيها نحو الهليوكوبتر المصرية ..

وصرخ الطيار مرة أخرى :

ـ اقفز يا رجل .. لن تفسد المهمة بعنادك .

ثم مال بالهليوكوبتر بغتة ، ففقد (حسن) توازنه ، ووجد نفسه يهوى من الهليوكوبتر نحو الرمال ، فكوّر جسده فى سرعة ، ليتفادى صدمة الهبوط ، فى حين دار الطيّار المصرى بطائرته دورة طويلة ، والإسرائيلى يطارده فى إصرار ، ويطلق نحوه رصاصات مدفعيه فى سخاء ..

وانطلق (خالد) و (عمرو) يعدوان نحو الهليوكوبتر الإسرائيلة ، ويطلقان عليها نيران مدفعيهما ، فشعر قائدها أنه يواجه هجومًا يفوق قدراته ، مما دفعه إلى الاستدارة ، والانطلاق مبتعدًا ، فهتف (حسن) :

ـ لقد هرب .

ولكن الهليوكوبتر المصرية انطلقت خلف الإسرائيلية ، فاستطرد فى حيرة :

ـ ولكن .. لماذا يطارده ؟.. إنه مصاب ، والدخان يتصاعد من خزان وقوده .

قال (محمد) ، وقد أدرك مغزى ما يحدث أمامه :

ـ طيارنا يخشى أن يفرّ الإسرائيلى ، ويبلغ رؤساءه بما رآه ؛ لذا فهو يطارده لإسقاطه .

وكان على حق فى هذا ..

لقد طارد الطيار المصرى نظيره الإسرائيلى فى إصرار ، خشية

إفساد الخطة ، ولكنه فشل فى إطلاق نيران مدفعيه نحوه ، بسبب عطب أصاب خط الذخيرة ، فعضّ شفتيه فى غيظ ، وهتف محنقًا :

ـ ذلك الوغد سيفسد كل شىء .

لم يكن يدرك طبيعة المهمة بالتحديد ، ولكنه يعلم أنها بالغة الأهمية والخطورة ، وليس من الهين المخاطرة بفشلها ؛ لذا فقد عقد حاجبيه فى صرامة ، وقال :

ـ فليكن .. لن نتنازل عن النصر هذه المرة .

وزاد من سرعة الهليوكوبتر ، على نحو جعل (عمرو) يهتف فى دهشة :

ـ ماذا يفعل بالضبط ؟

ارتجف قلب (خالد) فى صدره ، وهو يقول :

ـ أخشى أن ..

لم يستطع إكمال عبارته ، وهو يراقب تلك المناورة بقلق ..

وصح ما توقّعه تمامًا ..

لقد انقضّ الطيّار المصرى على الهليوكوبتر الإسرائيلية فى إصرار مخيف ، وبسرعة بالغة الخطورة ، حتى أن قائدها الإسرائيلى هتف فى ذعر :

ـ ما هذا ؟.. إنه مجنون !

وارتطمت الهليوكوبتر المصرية بالإسرائيلية ، فى سماء (سيناء) ..

ودوى الانفجار .

★ ★ ★

الفصل الرابع

الخميس : ٤ أكتوبر ١٩٧٣ م ـــــ ٨ رمضان ١٣٩٣ هـ : الواحدة بعد منتصف الليل

★ ★ ★

غرق الرجال الأربعة فى صمت ثقيل مهيب ، وهم يجلسون على رمال (سيناء) ، والتوتر فى أعماقهم يمتزج بالكثير من الحزن والأسى والمرارة ، دون أن يجرؤ أحدهم على شرح مشاعره وانفعالاته للآخرين ..

كان مشهد انفجار الهليوكوبتر عالقًا فى أذهانهم ، يعتصر قلوبهم ، ويمزّق صدورهم فى قسوة ..

ثم حطّم (خالد) حاجز الصمت فى حزم ، وهو ينظر إلى ساعته ، قائلًا :

ـ لم يصل (حمدان) فى موعده .

قال (عمرو) :

ـ إنها الواحدة تمامًا ، وربما يأتى فى أية لحظة الآن .

لم يكد يتم عبارته ، حتى تألّقت أضواء مصباحى سيارة ، تقترب من موقعهم فى سرعة ، فاعتدل الأربعة ، وقال (حسن) :

ـ ها هو ذا .

ولكن (خالد) عقد حاجبيه ، وقال فى توتر :

ـ مهلًا .. إنه ينطلق بسرعة أكبر من المعتاد ، ثم أنه يستخدم الضوء المرتفع ، على عكس المتفق عليه .

غمغم (حسن) فى توتر :

ـ وما الذى يعنيه هذا ؟

أجابه (خالد) فى توتر مماثل :

ـ ربما يعنى أن هذا ليس (حمدان) .

سأل (عمرو) :

ـ وكيف السبيل إلى التأكد من هذا ؟

أتاه الجواب على لسان (محمد) ، الذى نهض قائلًا فى بساطة :

ـ هناك وسيلة لهذا .

التقت عيون الثلاثة عند جسده النحيل الضئيل فى تساؤل ، فتابع :

ـ سألتقى وحدى بالسيارة القادمة ، ولو كانت السيارة المطلوبة ، سأقول لقائدها كلمة السر ، وينتهى كل شىء ، أما لو لم تكن كذلك ، فسأدعى أننى جندى ضل طريقه .

قال (خالد) فى توتر :

ـ أيمكنك أداء هذا حقًا ؟

ابتسم (محمد) ، وهو يقول فى بساطة :

ـ ولِمَ لا ؟!.. إنه أبسط جزء فى العملية كلها .

قالها والتقط مدفعه الآلى ، ثم اتجه فى خطوات سريعة إلى ما خلف التبة ، معترضًا طريق السيارة القادمة ، فغمغم (حسن) :

ـ من يصدِّق هذا ؟

التفت إليه (عمرو) بحركة حادة ، وقال :

ـ يصدِّق ماذا ؟

أشار (حسن) إلى (محمد) ، وقال :

ـ إنه مجرَّد راقص باليه ، وعلى الرغم من ...

بتر عبارته بغتة ، أمام نظرات (عمرو) و(خالد) الصارمة الغاضبة ، وتمتم فى حرج :

ـ لم أقصد شيئًا سيئًا .

لم يعلِّق أحدهما على عبارته ، مما زاد من حرجه وتوتره ، فتمتم محاولًا تحسين موقفه :

ـ إنه شجاع بحق .

مطَّ (عمرو) شفتيه فى ضيق ، وأشاح (خالد) بوجهه ، فهتف (حسن) فى عصبية :

ـ فليكن .. إننى أعتذر .

لم يجب أحدهما هذه المرة أيضًا ، فقد انشغلا بمراقبة (محمد) ، الذى بلغته السيارة ، وتوقَّفت إلى جواره تمامًا ..

ولقد بهر ضوء السيارة عينى (محمد) فى البداية ، فأغلقهما ، ورفع مدفعه بيد واحدة ، طالبًا من (الجيب) التوقُّف ، ولم تكد تفعل حتى وجد نفسه يرتبك ويتلعثم ، ويقول بالعبرية ، التى يجيدها نفس إجادته للعربية :

ـ معذرة يا سيِّدى .. لقد ضللت طريقى فى الصحراء ، و ...

قاطعه صوت حازم :

ـ عجبًا!.. كنت أظنك تحمل لقب (صقر) .

فتح عينيه فى سرعة ، ورفع وجهه إلى مصدر الصوت ، وتفجَّرت الدهشة فى أعماقه بشدة ..

لم يكن قائد السيارة هو البدوى (حمدان) ..

بل كان فتاة ..

فتاة باهرة الحسن ..

* * *

اتسعت عينا (محمد) فى دهشة كبيرة ، وهو يتطلَّع إلى صاحبة الصوت الأنثوى الرقيق ، الذى لا يخلو من الصرامة والحزم ..

كانت هادئة ، جادة ، تمتلك ذلك السحر الشرقى الأخَّاذ ، بعينيها السوداوين الواسعتين ، ووجهها الأسمر الرقيق ، وشعرها الحريرى الأسود ، الذى ينسدل على جانبى وجهها كليل بلا نجوم ..

وتسمَّرت عينا (محمد) على وجه الفتاة ، حتى كرَّرت فى حزم :

ـ أخبرنى .. هل تحمل لقب (صقر) ؟

اعتدل متخليًا عن انبهاره ، وأجاب :

ـ نعم .. أنا واحد من الصقور الأربعة .

تنهَّدت فى ارتياح ، وتلاشى حزمها وصرامتها دفعة واحدة ، وهى تمدّ يدها إليه بالتحية ، قائلة فى ود :

ـ حمدًا لله على وصولكم سالمين .. أين الباقون ؟

صافحها فى سعادة ، وهو يشير لرفاقه بالقدوم ، ثم قفز داخل

السيارة ، واتخذ المقعد المجاور لها ، ووصل زملاؤه فى سرعة ، ليحتلّوا مقاعد السيارة الباقية بدورهم ، وسألها (خالد) فى حذر :

ـ من أنت ؟.. وأين الشيخ (حمدان) ؟

أجابته وهى تدير محرِّك السيارة ، وتنطلق بها عائدة :

ـ أنا (راوية).. ابنة الشيخ (حمدان) ، وأعلم كل شىء عن مهمتكم.

عاد يسألها ، وقد اصطبغت لهجته بالصرامة هذه المرة :

ـ أين (حمدان) ؟

ارتفع حاجبا (عمرو) فى دهشة ، وهو يتطلَّع إلى وجه (راوية) ، التى تقود السيارة فى مهارة وتركيز ؛ فقد خُيِّل إليه ، على ضوء القمر الخافت أن خيطًا من الدمع يسيل من عينيها الجميلتين ، وينزلق على خدها الأسمر اللامع ، و (خالد) يكرِّر فى قسوة عصبية هذه المرة :

ـ أين هو يا (راوية) ؟

اختنق صوت الفتاة ، وغصّ بدموعها ، وهى تقول :

ـ مات .

حدَّق الجميع فيها بدهشة ، وهتف (حسن) :

ـ هل كشف الإسرائيليون أمره .

هزَّت رأسها نفيًا ، وأفلت من بين شفتيها نحيب باك ، أسرعت تكتمه فى صدرها ، وهى تقول :

ـ كلَّا .. لقد مات ميتة طبيعية .. أصابته نوبة قلبية منذ ساعتين ، فلقى ربه مبتسمًا ، منشرح الصدر ، وهو يؤكِّد أن مهمتكم تعنى حتمًا قرب اندلاع الحرب الشاملة ، وقرب تحرُّرنا من الاستعمار الإسرائيلى ..



مسحت دمعة انحدرت من عينيها ، قبل أن تتابع :

ـ منذ غروب الشمس ، وهو يتعامل وكأننا تحرّرنا بالفعل ، ويتحرّك فى حيوية ونشاط عجيبين ، وكأن عمره قد انخفض عشرين عامًا فجأة ، ثم ..

صمتت فجأة ، مركّزة انتباهها على الطريق ، ثم استطردت :

ـ سقط فجأة ، وهو يعدّ السيارة لاستقبالكم .. تمامًا كشمعة أطفأتها الرياح .

تمتم (خالد) فى خفوت :

ـ فلندع له بالرحمة .

ابتسمت (راوية) ابتسامة حزينة ، وقالت :

ـ لم أشأ إضاعة الوقت فى بكاء وعويل .. تركت هذه المهمة لأمى وأختى ، وقرّرت أن خير ما أقوم به هو أن أتم ما بدأه ، وأخرج لاستقبالكم .. هذا يجعله يرقد فى قبره بارتياح .

سألها (خالد) :

ـ وهل أخبرك بكل شىء ؟

أومأت برأسها إيجابًا ، وقالت :

ـ تقريبًا .. لقد كان ـ رحمه الله ـ كتومًا للغاية ، ولكنه كان يعتبرنى دائمًا كاتمة أسراره .

سألها فى لهفة واهتمام :

ـ هل أعطاك الأوراق إذن ؟

أخرجت من طيات ثوبها أوراق مطوية فى عناية ، وناولتها له ، قائلة :

ـ ها هى ذى .. كان يحرص عليها كروحه ، ولكنها لم تذهب معه .

التقط الأوراق فى لهفة ، وفردها ليطالعها فى اهتمام ، على ضوء مصباحه اليدوى ، ثم دسّها فى جيب سترته ، قائلًا :

ـ الأختام مزوّرة بدقة مدهشة .

قالت فى هدوء حاسم :

ـ إنها حقيقية .

هتف (عمرو) فى دهشة :

ـ حقيقية ؟!.. وكيف حصل والدك على أختام حقيقية ؟

أجابت فى بساطة :

ـ دفع رشوة للضابط الإدارى المسئول .

قال (حسن) مشدوهًا :

ـ رشوة ؟!.. أيوجد مرتشون لديهم ؟

أجابت فى اقتضاب :

ـ نعم .. (السفرديم) .

ثم شعرت أن إجابتها ليست واضحة أو كافية ، فتابعت :

ـ الإسرائيليون هم المسئولون عن عدم الانتماء هذا ، فى نفوس بعض ضباطهم وجنودهم ، فعلى الرغم من أن (إسرائيل) تحارب بشدة تعصّب بعض الشعوب ضدها ، إلا أنها فى داخلها دولة عنصرية متعصّبة ، وقيامها وحده خير دليل على هذا .. إنهم يقسمون اليهود إلى فئتين .. (اشكنيم) و(سفرديم) .. الأولى هى اليهود الغربيين ، الذين يتمتعون بكل الامتيازات ، ويحصلون عادة على أرفع وأعلى المناصب ، أما الثانية فهى اليهود

الشرقيون ، الذين يعاملون باعتبارهم الأدنى ، على الرغم من أن الفئتين تحملان الجنسية الإسرائيلية ، فيشعر (السفرديم) بالحنق والاضطهاد ، ويقل انتماؤهم ، فيسهل اجتذابهم وتجنيدهم .

سألها (حسن) فجأة بقلق :

ـ أليس من الخطر أن ننطلق على أرض العدو بسيارة لها مثل هذه المصابيح القوية ؟

أجابته في هدوء :

ـ العدو لا يمكنه مراقبة كل شبر من أرض (سيناء) أيها الصقر ، وما تزال هناك بقاع يجهلها ، ونحفظها نحن عن ظهر قلب .

قالتها وهى تدور بالسيارة حول تل قريب ، ثم ضغطت فرامل السيارة فجأة بكل قوة ، هاتفة :

ـ يا إلهى !

فهناك ، على بعد أمتار قليلة منهم ، كانت مصابيح عدد من السيارات تقترب فى سرعة ، فهتف (خالد) :

ـ إنها دورية إسرائيلية .

وأضاف (عمرو) فى توتر بالغ :

ـ إنهم يتجهون نحونا مباشرة ، ولقد رأونا حتمًا .

ازدرد (حسن) لعابه فى توتر مماثل ، وقال :

ـ رأوا مصابيح سيارتنا على الأقل .

وهنا هتف (محمد) فجأة ، فى لهجة آمرة ، لا تتناسب مع كون رتبته أقل من (عمرو) و(خالد) :

ـ غادروا السيارة فورًا ، واختبئوا عند هذا التل القريب .

قال (خالد) فى حدة :

ـ ماذا تقول أيها الملازم ؟

أجابه (محمد) فى هدوء وبساطة :

ـ ألم تسمع ما قاله (حسن) يا سيادة النقيب ؟.. لقد رأوا مصابيح السيارة فحسب ، ولن يمكنهم تخمين عدد ركابها .. أسرعوا بمغادرتها إذن ، وسأبقى وحدى ، فليس من المنطقى أن نعرض أنفسنا جميعًا للخطر ، ومهمتنا لم تبدأ بعد .

قال (خالد) فى حدة :

ـ ولِمَ لا أبقى أنا ؟

أجابه بنفس البساطة :

ـ لأنك قائد العملية ، والملازم أول (عمرو) هو أفضل من يجيد العبرية ، وهو الذى سيلعب دور الضابط الإسرائيلى ، عندما تحين ساعة الصفر ، و(راوية) فتاة .

قال (حسن) فى حزم :

ـ وماذا عنى ؟

قال (محمد) :

ـ لا تضيع الوقت فى النقاش .. إنهم يقتربون .

كان حديثه منطقيًا ، مما جعل (خالد) يقفز من السيارة ، ويعاون (راوية) على مغادرتها ، فى حين ربّت (عمرو) على كتف (محمد) ، وقال :

- وفقك الله .

وأسرع الثلاثة يعدون نحو التل القريب ، فى حين جلس (حسن) على مقعده ، وجذب إبرة مدفعه الآلى فى حزم ، فقال (محمد) :

- الحق بهم بسرعة ، قبل فوات الأوان .

أجابه (حسن) فى حزم :

- اثنان أفضل من واحد يا سيادة الملازم .

قال (محمد) ، وهو يراقب السيارتين القادمتين فى قلق :

- ارحل يا رجل .. هذا أمر .

كرّر (حسن) فى عناد :

- اثنان أفضل من واحد يا سيادة الملازم ، ويمكنك محاكمتى عسكريًا عند عودتنا .

تنهّد (محمد) ، وتطلّع إلى السيارتين ، اللتين صارتا قاب قوسين أو أدنى من سيارتهما ، فغمغم :

- لا بأس .. فليفعل الله (سبحانه وتعالى) ما يشاء .

توقّفت السيارتان إلى جوار سيارته ، وهو يتظاهر بفحص محرّكها ، وهبط منهما ستة من الجنود الإسرائيليين ، صوّب خمسة منهم مدافعهم الآليه نحو (محمد) و (حسن) ، فى حين تقدّم منهما السادس ، وقال :

- من أنتما ، وماذا تفعلان هنا ؟

أجابه (محمد) فى هدوء ، وبعبرية سليمة :

- لقد ضللنا طريقنا ، والمحرّك يرفض العمل ، و ...

قاطعه الرجل ، الذى تبدو القسوة وكأنها جزء من ملامحه ، وأشار إلى (حسن) ، قائلًا :

- أنت .. تعال هنا .

غادر (حسن) السيارة ، وهو يحمل مدفعه فى حزم ، ووقف أمام الملازم الإسرائيلى الضخم الجثة ، غليظ العنق ، وقال :

- ماذا تريد أيها الملازم ؟

التقى حاجبا الرجل ، وهو يميل بأذنه فى حركة عجيبة ، قائلًا :

- ماذا قلت أيها الجندى ؟.. هيا .. كرّر عبارتك ، فلغتك العبرية لا تروق لى .

ازدرد (حسن) لعابه ، وقال :

- إننى مهاجر عراقى ، وصلت إلى (إسرائيل) حديثًا ، ولم تتح لى بعد فرصة إجادة العبرية .

تراجع الضخم ، وبرقت عيناه على نحو عجيب ، وهو يقول :

- هكذا ؟!

وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، لم ترق لهما ، وهو يستطرد :

- لقد فقدنا واحدة من طائرات الهليوكوبتر .. هل لمحتما شيئًا غير عادى الليلة ؟

أجابه (محمد) فى بساطة :

- مطلقًا .. إننا نسير منذ ساعتين ، ولم ..

قاطعته فجأة ضحكة ساخرة عالية ، أطلقها الملازم الإسرائيلى الضخم الجثة ، على نحو بغيض مستفز ، قبل أن يلتفت إليهما ، ويقول :

ـ لعبة طريفة ، ولكنها فاشلة .

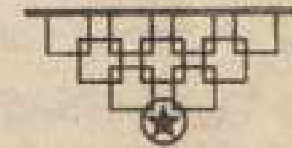
وأشار بسبّابته إلى (حسن) مستطردًا :

ـ المهاجرون الجدد لا يعملون فى الخطوط الأمامية أيها الفاشل

ثم انتزع مسدسه فجأة ، وصوّبه إليهما ، مستطردًا فى شراسة :

ـ أم أقول : أيها الجاسوس المصرى .

وفى حركة غريزية ، دفعه إليها حب البقاء ، رفع (حسن) فوهة مدفعه الآلى ، وأطلق النار على الملازم الإسرائيلى الضخم الجثة .. واشتعل الموقف .



الفصل الخامس

الخميس : ٤ أكتوبر ١٩٧٣ م / ٨ رمضان ١٣٩٣ هـ : الثانية والنصف صباحا

★ ★ ★

مزّقت رصاصات (حسن) جسد الملازم الإسرائيلى ، ودفعته إلى الخلف فى عنف ، ليرتطم بثلاثة من رجاله ، فى حين تراجع الرجلان الباقيان فى حركة حادة ، وارتفعت فوهتا مدفعيهما ، مع فوهة مدفع (محمد) ، الذى تحرّك فى سرعة مدهشة ، وأطلق رصاصات مدفعه بدوره على الإسرائيليين ..

وفوجئ الإسرائيليون بالرصاصات تنهال عليهم كالمطر ، وبـ(خالد) و(عمرو) و(راوية) يندفعون من خلف التل ، وهم يطلقون عليهم رصاصات مدافعهم الآلية أيضًا ..

وانعكس الأمر ..

سقط الإسرائيليون فى الكمين ، بدلًا من أن يسقط فيه المصريون ..

وانتهى القتال فى لحظات قصار ، أدهشت الجميع ..

ولقى الإسرائيليون الستة مصرعهم ، قبل أن يتخذوا خطوة واحدة ، فى حين وقف (حسن) مشدوهًا ، يتطلّع إلى الموقف فى ذهول ، فهزّه (محمد) من كتفيه ، قائلًا :

ـ ماذا أصابك يا رجل ؟

ردّد (حسن) :

ـ لا شئ .

ثم التفت إليه ، متابعًا :

ـ وهذا هو ما يذهلنى .. لقد قتلنا ستة من الإسرائيليين ، دون أن أصاب برصاصة واحدة .

ربّت (خالد) على كتفه ، قائلًا :

ـ كانت مبادرتك مباغتة لهم ، وتدخّلنا قلب موازينهم ، وأربكهم ، فلم ينتبهوا حتى سقطوا جثثًا هامدة .

هزّ (حسن) رأسه فى قوة ، مردّدًا :

ـ غير معقول !

جذبه (عمرو) نحو السيارة ، وهو يقول :

ـ فليكن .. سنناقش هذه المعجزة فيما بعد .. المهم أن نبتعد عن هنا بأقصى سرعة ، قبل أن يرسل الإسرائيليون دورية أخرى .

نفض (حسن) عن نفسه دهشته ، وقفز مع الآخرين داخل السيارة التى انطلقت بها (راوية) عبر الصحراء ، وهى تقول :

ـ هناك أمر ما يثير أعصاب الإسرائيليين الليلة ، فقد أبدلوا مسار دورياتهم ، وكأنهم يتوقعون حدوث أمر ما .

سأل (عمرو) فى قلق :

ـ أمن المحتمل أن فكرة العملية قد تسرّبت ؟

هزّ (خالد) رأسه فى حزم ، قائلًا :

ـ مستحيل !

قال (حسن) قلقًا :

ـ ولِمَ لا ؟.. ألم تسمع عن قوة ومهارة المخابرات الإسرائيلية .

قال (خالد) :

ـ دعاية .. مجرّد دعاية يا صديقى .. الإسرائيليون يجيدون هذا إجادة تامة ، فهم يبالغون فى قوتهم ، ويحيطون أنفسهم بعدد من الروايات والأساطير ، بحيث ينحفر فى أعماق الجميع أنهم بالفعل قوة لا تقهر ، وفرسان لا يشقّ لهم غبار ، ولكنهم فى الواقع مجرّد رجال عاديين ، لا يمكنهم أبدًا اختراق أسوار السرية ، لو أننا نحرص عليها بالفعل .

لم يحاول أحدهم مجادلته ، أو مناقشته فيما ذهب إليه ، وإن بدا لهم حديثه إنشائيًا ، أكثر منه عمليًا ، وقالت (راوية) فى خفوت :



- استعدوا .. لقد وصلنا تقريبًا .

ثم دارت حول تبة أخرى ، فبدا أمامهم منزل واسع من طابق واحد ، يجاوره بئر ، وزوج من النخيل ، وسيارة قديمة ، وقالت (راوية) ، وهى تتجه بسيارتها إلى المنزل :

- من هنا تبدأ رحلتكم الحقيقية أيها السادة .. ومن هنا تكون الخطوة الأولى فى العملية .. (عملية صقر) .

★ ★ ★

استيقظ النقيب (خالد) فى العاشرة صباحا ، بعد نوم عميق ، دام ست ساعات كاملة ، فنهض من فراشه ، وجلس على طرفه يتثاءب ، ويفرد ذراعيه عن آخرهما ، ثم تأمل الحجرة الصغيرة ، التى تتسع بالكاد لفراشه الصغير ، ومنضدة تستوعب دورقًا فخاريًا ، يمتلئ بالماء العذب النظيف ..

وهز (خالد) رأسه ، وكأنه ينفض عن نفسه الكسل والنعاس ، ثم غادر الحجرة ، ليكشف أنه آخر من استيقظ ، فقد كان الجميع يجلسون حول المائدة ،ويتحدثون فى هدوء ، وكأنهم يقضون فترة استرخاء ، لا جزءًا من مهمة انتحارية بالغة الخطورة ، وكانوا يرتدون مثله ثيابًا بدوية ، جعلته يبتسم قائلًا :

- صباح الخير يا أبناء العرب .

ردوا تحيته فى بساطة ، ونهضت والدة (راوية) تستقبله ، مع شقيقتها (هادية) ، وقالت (راوية) :

- لا ريب أنك بحاجة إلى الاغتسال يا سيادة النقيب .. سأحضر لك بعض الماء من البئر ، و ...

قاطعها (محمد) بصوته الهادئ ، وهو يقول :

- انتظرى .. سأحضر أنا الماء من البئر .

قالها وهو يلتقط الدلو الضخم ، ويتجه إلى باب المنزل ، وتابعته هى ببصرها فى إشفاق ، وهى تتأمل جسده النحيل ، ثم قالت فى خفوت :

- شهم هو هذا الفتى .. على الرغم من جسده النحيل ورقته البالغة ، حتى ليدهش أن أراه فى زى رجال الصاعقة .

قال (حسن) فى ضيق ، وكأنما يحنقه أن تصف (راوية) أحد رجال الصاعقة بالرقة :

- مجرد مظهر خداع .. إنه يمتلك شجاعة الأسد ، وصلابة الفولاذ .

قالها فى ثقة شديدة ، واعتداد بالغ ، على الرغم من أنه لم ير (محمد) قط فى أثناء العمل ، ولكنه أراد أن يثبت لها أن اختيار قادة الجيش لرجالهم صائب دومًا ، حتى ولو بدا الأمر مخالفًا لهذا ..

وافقته (راوية) بإيماءه من رأسها ، وابتسمت ..

وكانت أول مرة تبتسم فيها ، فبدا وجهها الأسمر جذابًا فاتنا ، بهر عيون الرجال الثلاثة ، فتمتم (حسن) دون وعى :

- يا للروعة !

رمقه (خالد) بنظرة صارمة ، وتضرج وجه (راوية) بحمرة الخجل ، وأسرعت تقول ، وكأنها تبدل الحديث :

- أما زلتم تصرون على الصيام ، على الرغم من مهمتكم ؟

مسح (خالد) شفتيه بسبابته ، وقال :

ـ إننا نزداد صلابة ، كلما أطعنا الله (سبحانه وتعالى) ، وأدينا فرائضه .

فتح (عمرو) شفتيه ، لينطق عبارة ما ، إلا أن الكلمات احتبست فى حلقه ، والتقى حاجباه فى شدة ، مع صوت السيارة التى تقترب ، والذى بدا فجأة فى وضوح ، فى حين هبت (راوية) من مقعدها ، واندفعت نحو النافذة ، ثم أطلقت شهقة قوية ، وهى تضرب صدرها بكفها ، هاتفة فى ارتياع :

ـ الإسرائيليون .

لم تكد تنطقها حتى وثب (عمرو) من مقعده ، واختطف مدفعه الآلى ، وصاح (حسن) فى جزع :

ـ (محمد) بالخارج .

التقط (خالد) مدفعه الآلى بدوره ، وهو يقول فى حزم :

ـ يبدو أننا سنضطر لمخالفة الأوامر ، والاشتباك معهم يا رجال .

أمسكت (راوية) يده ، وهى تقول :

ـ قف .. إنهم أكثر من عشرة رجال ، وتتبعهم سيارة نصف مصفحة .

أجابها فى صرامة :

ـ و (محمد) بين أيديهم فى الخارج ، ولن نسمح بضياعه منا هكذا .

قالت فى عصبية :

ـ وهل تسمحون بضياع (مصر) كلها ؟

هزته عبارتها من الأعماق ، وجعلته يسترجع توازنه ، ويدرك أنه قائد .. والقائد لا ينساق أبدا خلف عواطفه ..

لقد أسند إليهم الوطن مهمة بالغة الدقة والخطورة ، وطالبهم ببذل أرواحهم من أجل نجاحها ، وليس من حقه التنازل عنها ، من أجل فرد واحد ، قد يلقى مصرعه ، حتى مع تدخلهم ..

وانتزعته (راوية) من أفكاره مرة أخرى ، وهى تقول :

ـ أسرعوا .. من هنا .

هتف (حسن) :

ـ و (محمد) ؟!

صاح به (خالد) :

ـ أطع يا جندى .. هذا أمر .

قادتهم إلى حجرة داخلية ، وتعاونوا معها لرفع حجر ضخم من أرضيتها ، فظهرت أسفله حجرة سرية كبيرة . قالت (راوية) ، وهى تشير إليها :

ـ لن يمكنهم كشف وجودكم داخلها .. مهما فعلوا .

أسرعوا داخل الحجرة السرية ، وأعادت هى الحجر فوقها ، بمعاونة أمها وشقيقتها (هادية) ، ثم ألقت جسدها فوق أريكة قريبة ، وهى تملأ ذهنها كله بصورة (محمد) ، وتلهث هاتفة :

ـ ساعده يا إلهى !.. ساعده ..

* * *

كانت مفاجأة عنيفة للملازم (محمد) ، عندما ظهرت أمامه السيارة الإسرائيلية ، وخلفها السيارة الأخرى نصف المصفحة ، وانتفضت عروقه فى أعماقه ، إلا أنه واصل رفع المياه فى هدوء ، دون أن يتطلع إلى الإسرائيليين ، حتى شعر بلكزة عنيفة فى ظهره ، وسمع صوتًا أجشا غليظًا ، يقول بالعبرية :

- التفت أيها البدوى الحقير .. لا تتظاهر بتجاهلنا .

استدار (محمد) فى هدوء ، يخفى به ذلك الانفعال ، الذى تعصف به أعماقه ، ليواجه ملازمًا إسرائيليًا ضخما ، يلوك فى فمه قطعة من اللبان ، وتبدو أسنانه القذرة من خلال ابتسامته الساخرة ، وهو يتأمل (محمد) ، قائلا بلغة عربية ركيكة :

- عجبا !!.. إنها أول مرة أرى فيها رجل بدوى أبيض البشرة .. قل لى يا فتى .. ألا تعمل إلا فى الليل ؟

أجابه (محمد) فى هدوء :

- لا حيلة لى فى لونى أيها الإسرائيلى .

فجأة هوى الإسرائيلى على وجهه بصفعة قوية ، ترنح لها جسده الضئيل ، وهو يصرخ :

- عندما تتحدث إلى أحد ضباط جيش الدفاع ، لا تخاطبه بقولك : (أيها الإسرائيلى) .. بل قل : (يا سيادة الملازم المحترم) .. هل تفهم ؟

تطلع إليه (محمد) بغضب شديد ، وتمالك نفسه فى صعوبة ، حتى لا يهوى على وجهه بصفعة مماثلة ، فى حين تلفت الإسرائيلى حوله ، وهو يقول :

- أين (حمدان) ؟

أجابه (محمد) بصوت مختنق :

- لقد مات .

التفت إليه الرجل فى وحشية ، وقال :

- هل تلعب لعبة سخيفة ، أم تتظاهر بالذكاء ؟

أجابه (محمد) فى ضيق :

- لا هذا ولا ذاك .. لقد مات أمس بالفعل ، ويمكنك أن تسأل كل من حضر جنازته .

مال الإسرائيلى نحوه ، قائلًا :

- فليكن .. ربما كان هذا أفضل له .. ولكن من أنت بالضبط ؟

أجابه (محمد) فى ثبات :

- ابن شقيقه (محمد) .

اعتدل الإسرائيلى بحركة حادة ، وهتف :

- ابن من ؟!.. أخطأت يا فتى .. لم يكن لـ(حمدان) أشقاء .. أخبرنى من أنت ، أو أقطع لسانك ، وأطعمه لكلاب السجن الحربى .

صاح أحد الإسرائيليين فى هذه اللحظة ، وهو يبرز من خلف المنزل :

- توجد هنا واحدة من سيارات الجيب المفقودة .

لم يكد الإسرائيلى ينطق هذه العبارة ، حتى أدرك (محمد) أنه سقط ، ولم تعد أمامه فرصة للنجاة ، فدفع العباءة البدوية جانبًا ، واستل من حزامه خنجرًا ماضيًا ، ثم وثب فى رشاقة مدهشة ، ليحيط عنق الملازم بذراعه ، ويضع نصل الخنجر على عنقه ، هاتفًا :

- فليكن يا رجل .. خذ الحقيقة ، ما دمت تريدها .. إننى مقاتل مصرى ، أحتل منزل (حمدان) بالقوة ، منذ مساء أمس .

ارتجف قلب (راوية) ، إزاء هـذا المشهـد ، وفهمت على الفـور ما يرمى إليه (محمد) ، بقوله : إنه يحتل المنزل بالقوة ..

إنه يبرئها وأمها وشقيقتها ، من تهمة التعاون معه ..

يا له من شهم !

ولكن الشهامة وحدها لم تكن تكفى ، فى مثل هذا الموقف ..

لقد كان فارق القوة بينه وبين الملازم الإسرائيلى ضخمًا ، حتى أن هذا الأخير ، انتزعه من فوق ظهره بسهولة ، وكال له لكمة كالقنبلة ، وهو يهتف :

- طريف منك أن اعترفت .

وارتفعت فوهات المدافع الآلية نحو (محمد) ، ولكن الإسرائيلى هتف :

- أريده حيًا ..

وهنا انقضَّ الرجال العشرة على (محمد) ..

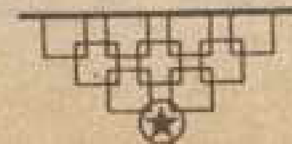
وهزمت الكثرة الشجاعة ..

وسقط (محمد) ..

سقط فى قبضة العدو ..

★ ★ ★

[البقية فى الكتاب القادم من كوكتيل ٢٠٠٠]





الانفجار الغامض (دراسة)

بدأ كل شىء بداية حسنة ، مع شروق شمس ذلك اليوم ، فى الثلاثين من يونيو ، عام ١٩٠٨م ، وخرجت حيوانات الرنة سعيًا وراء رزقها ، وساق المزارعون ماشيتهم إلى الحقول ، وتركوها ترعى هانئة طيلة النهار ، و ...

وفجأة وقعت الكارثة ..

فى تمام الخامسة ، وسبع عشرة دقيقة بالضبط دوى الانفجار ..

كتلة هائلة من اللهب ارتفعت من وادى نهر (تانجسكا) فى أصقاع (سيبيريا) ، وأضاءت نصف الكرة الأرضية تقريبًا ، فى انفجار رهيب مخيف ، لم ير العالم مثيلًا له قط ، إلى يومنا هذا ..

الإنجليز أمكنهم قراءة الأحرف الصغيرة من جريدة (التايمز) ، فى منتصف الليل ..

فى (استوكهولم) التقطوا عددًا من الصور الضوئية ، دون وميض ، فى قلب الليل ..

الألمان حظوا بنهار دام أكثر من أربع وعشرين ساعة ..

الهولنديون عجزوا عن رصد النجوم ، بسبب الضوء المبهر ..

وفى (روسيا) نفسها كان وقع الأمر أعظم وأخطر ..

لقد أكّد مزارع ، كان يجلس على بعد ستين كيلومترًا من موقع الانفجار ، أنه شعر بلفح النيران ، ورأى كرة هائلة من اللهب تصعد إلى السماء ، ثم ألقاه الانفجار بعيدًا ، وأطاح بسقف منزله ..

وسرى الرعب فى العالم أجمع ، وراح الجميع يتساءلون عن هذا الانفجار الغامض ، الذى بدا لهم ـ آنذاك ـ وكأنه الخطوة الأولى ، فى طريق فناء العالم ، من هول ما رأوا ..

ولكن العجيب أن أحدًا فى (روسيا) القيصرية لم يتحرّك ، للبحث عن سبب حدوث هذا الانفجار العجيب ، إذ كان الجميع وقتها منشغلين بتلك الاضطرابات السياسية ، التى سادت البلاد ، واستمرّت تتفاقم ، حتى اندلعت الثورة البلشفية ، عام ١٩١٧ م..

وفى عام ١٩٢١ م ، بدأ عالم سوفيتى يدعى (ليونيد كوليك) ، أوّل بحث فعلى وجاد ، عما أطلق عليه الجميع اسم (انفجار سيبيريا) ..

وعثر (كوليك) على صحيفة قديمة ، تصف ذلك الانفجار الكبير ، قائلة :

ـ شاهد الفلاحون جسمًا شديد الإضاءة ، يهبط من السماء ، فى الشمال الغربى ، بميل واضح ، وبدا لهم الجسم اسطوانيًا

منتظمًا ، وعندما بلغ ذلك الجسم سطح الأرض انسحق ، وتكوّنت سحابة هائلة من الدخان الأسود ، ثم دوى صوت انفجار ألف ألف مدفع جبار ، واهتزّت القرية كلها ، وتصوّر الجميع أنها نهاية العالم .. ،

والتقط (كوليك) طرف الخيط ، من هذا الوصف ، الذى نقلته الصحيفة عن شاهد عيان ، وراح يدرس الحادث كله ، ويحاول البحث عن تفسير منطقى له ، ثم لم يلبث أن خرج بدعم من أكاديمية العلوم السوفيتية ، عام ١٩٢٧ م ، فى أوّل رحلة علمية جادة ، للبحث عن أسباب الانفجار الغامض ..

ويا لها من رحلة !..

لقد اجتاز (كوليك) (سيبيريا) كلها بالقطار ، حتى (تيشيت) ، ثم واصل رحلته بالجياد والزحافات ، حتى بلغ (فاتافارا) ، آخر المناطق المأهولة ، قبل أن يغوص مع قافلته فى (التايجا) ..

و (التايجا) هى المنطقة المجهولة من (سيبيريا) ، كما يسميها السوفيت ، والتى ظلت تثير فى قلوبهم الرعب ، حتى بعد أن أقاموا فيها بعض المدن الحديثة ..

وبعد شهر كامل ، شاب فيه شعر (كوليك) ورجاله ، وسط صقيع (سيبيريا) الرهيب ، بلغ (كوليك) نهر (ميكيرتا) ، حيث رأى أوّل علامة من علامات الانفجار ..

كانت الأشجار فى المنطقة قد اقتلعت من جذورها عن آخرها ، وتراصت على نحو منتظم ككتيبة عسكرية لقيت مصرعها ، فى أثناء طابور الصباح ، وكل قممها تتجه إلى الجنوب الشرقى ..

وكلما توغل (كوليك) أكثر ، بدت علامات الدمار أكثر شدة وبشاعة ..

حتى أشجار (التيجا) الهائلة اقتلعها الانفجار من جذورها وصفَّها على النحو نفسه ، فى اتجاه الجنوب الشرقى ، وجذورها تشير إلى الشمال الغربى ، حيث مركز الانفجار حتمًا ..

ولكن الرجال رفضوا الاستمرار ..

ما رأوه ملأ قلوبهم بالرعب والهلع ، فأصرُّوا على العودة ، ولم يملك (كوليك) سوى الانصياع لهم ، فعاد والحسرة تملأ قلبه ، إلا أنه لم يلبث أن حصل على مرافقين جدد ، فعاود الكرَّة فى يونية ، حتى بلغ هذه المرة منطقة تعرف باسم (المراجل) ..

وهناك خفق قلبه فى شدة ..

كان كل شىء يشير إلى أنه الآن فى مركز الانفجار ..

كل شىء ..

ومن فرط حماسه وانفعاله ، راح (كوليك) يضع تقريره ، الذى أكد فيه أن ما حدث فى (تانجسكا) ، هو أن نيزكًا هائلًا من الصلب هوى على المكان ، وانفجر ، فسبَّب كل هذا الدمار ..

وحتى مصرعه على أيدى النازيين ، فى الحرب العالمية الثانية ، كان (كوليك) مطمئنًا إلى أنه وجد حل اللغز ، وأنهى المشكلة ..

ولكن هيهات ..

الحرب العالمية الثانية نفسها ، وضعت افتراضًا جديدًا ، للانفجار الغامض فى (سيبيريا) ..

وخصوصًا بعد قنبلة (هيروشيما) ..

لقد لاحظ بعض العلماء وجود تشابه واضح ، بين انفجار (تانجسكا) ، وآثار قنبلة (هيروشيما) ..

ففى مركز الانفجار ـ فى الحالتين ـ كان التدمير أقل نسبيًا من الأطراف ، كما أن بعض الأشجار بقيت واقفة فى المركزين ، وكلا الانفجارين ارتفع عمود من اللهب والدخان ، على شكل فطر (عش الغراب) ، وفى كليهما نبت النباتات بسرعة ، بعد فترة قصيرة ..

الفارق الوحيد أن عمود الدخان واللهب قد ارتفع لمسافة أعلى كثيرًا ، فى حادث (سيبيريا) ، كما لو أنه كان أقوى ألف مرة من قنبلة (هيروشيما) ..

ومع طرح فكرة التشابه ، بدأ فريق من العلماء يدرس الأمر من منظور آخر ..

وكانت النتائج مدهشة ..

كانت هناك تغيرات وراثية عنيفة ، فى نباتات وحشرات (سيبيريا) ، فى المنطقة التى حدث فيها الانفجار ، وقروح واضحة على أجسام الحيوانات ، تمامًا كما حدث فى (هيروشيما) بعد الانفجار ..

الشىء الجديد فى انفجار (سيبيريا) ، هو أن العلماء عثروا هناك على أنواع من (السليكا) ، تحوى فى قلبها فقاعات هوائية ، كتلك التى يتم رصدها ، بالتحليل الطيفى للأجسام الفضائية ، وعلى قطع من الفسفور النقى ، المستحيل وجوده فى الطبيعة ، وعناصر نادرة جدًا ، مثل (اليوتربيوم) ..

وصار من الواضح أن ما حدث فى (تانجسكا) كان انفجارًا نوويًا ، بشكل أو بآخر ..

بل لقد أثبت العلماء أن الانفجار لم يحدث عند ارتطام جسم ما بالأرض ، بل حدث قبل أن يبلغ هذا الجسم الأرض ، وبالتحديد على ارتفاع ثمانية كيلومترات من الأرض ..

ومع هذا الإثبات الجديد ظهرت نظرية جديدة ، تبناها الأكاديمى السوفيتى (زولوتوف) ..

ونظرية (زولوتوف) تعتمد على أقوال أكثر من سبعمائة شاهد عيان ، أكدوا أن الجسم المنفجر تحرك أفقيًا ، أو على نحو شبه أفقى ، من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى ، وكأنه يجرى مناورة مدروسة ، قبل أن يهوى إلى أسفل ، وينفجر ..

وبناء على هذه الشهادة ، أعلن (زولوتوف) إيمانه بأن هذا الجسم ، الذى انفجر فى (تانجسكا) كان سفينة فضاء ، قادمة من عالم آخر ، وتستخدم الطاقة النووية فى تسييرها ، وأن ركابها أدركوا أنها ستنفجر لا محالة ، فاتجهوا بها نحو منطقة غير مأهولة ، لتنفجر دون أن تؤذى سكان الأرض ، وكل ما عثر عليه العلماء فى المنطقة هو بقايا المركبة بعد انفجارها ..

وهذا التفسير ، على الرغم مما يبدو عليه من خيال جامح ، يرضى أصحاب العقول المنطلقة ، إلا أنه منطقى للغاية ، من الناحية العلمية والعملية ، ويحمل الحلول لكل عوامل الغموض ..

ولكن البعض يرفض هذه النظرية أيضًا ، وبإصرار ، مثل العالم (ا . جاكسون) ، وزميله (ب . رايان) ، اللذين وضعا نظرية جديدة ، تقول أن أحد الثقوب السوداء ، ذات الحجم الدقيق ، هو الذى ارتطم بالأرض ، وأحدث هذا الانفجار الهائل ..

ثم خرج (س. أتلورى) ، و (ف. ليبى) من (كاليفورنا) بنظرية المادة المضادة ، التى سبحت فى الكون ، وسقطت على الأرض ، وانفجرت ..

كل هذا إلى جانب الفكرة البسيطة ، التى طرحها (كوليك) ، والتى أيدها بعض العلماء بالفعل ، حتى يومنا هذا ، مع تطوير جوهرى ..

فكرة النيزك ..

أو المذنب ..

والمذنب يختلف عن النيزك فى أنه يجرّ خلفه ذيلًا طويلًا (ومن هنا كان اسمه) ، يتكوّن من الغازات المتجمدة ، أو المحفوظة ، إلى جوار كميات من الغبار ، والغاز ، والجليد ..

وبعض العلماء يفترضون أنه ـ ولأوّل مرة فى التاريخ كله ـ سقط مذنب على (تانجسكا) ، عام ١٩٠٨ م ، وفعل كل ما فعل ..

وفى دراسة حديثة ، ظهرت فى الثمانينات ، أجمع عدد من العلماء الأمريكيين على أن انفجار (تانجسكا) لم يكن الأوّل من نوعه ، على سطح الأرض ، بل كان هناك انفجار آخر ، منذ ما يقرب من خمسة وستين مليون عام ، أدى إلى فناء الديناصورات ،

وأفسح المجال لنا نحن البشر ، لننمو ونتطوَّر ، وأنه سيكون هناك انفجار آخر ، فى زمن قادم ، ربما يقضى علينا ، ويفسح المجال لأحفادنا .. أو أحفاد أحفادنا ..

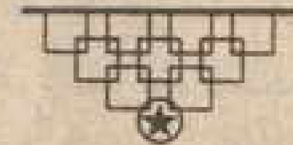
ولكن أيًا كانت النظريات ..

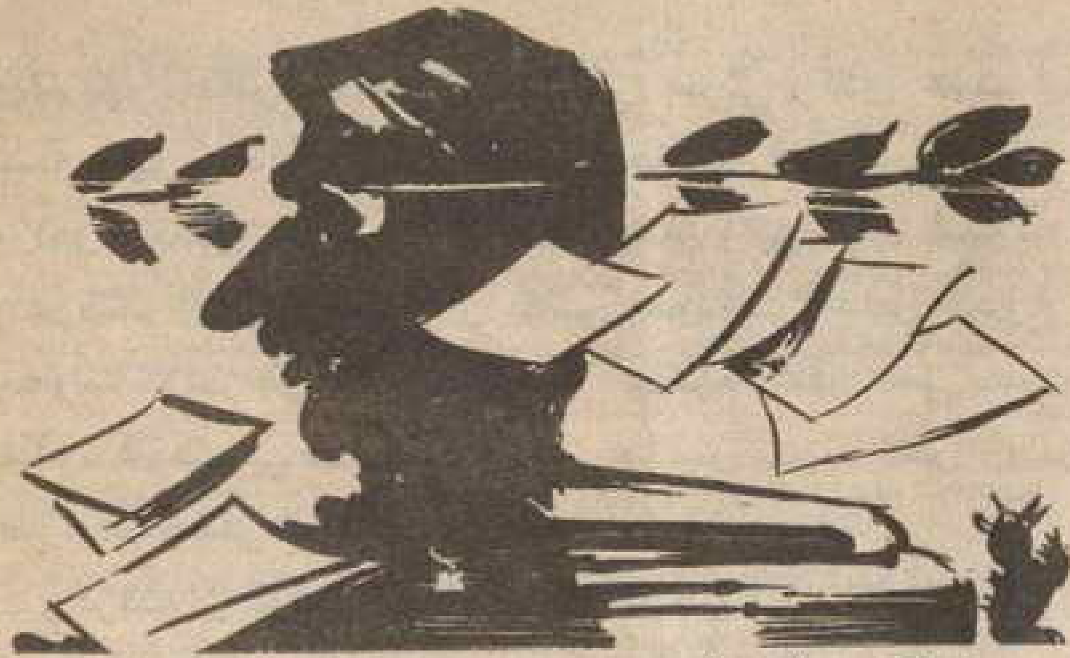
وأيًا كانت الأسباب ، فهناك حقيقة واحدة مؤكَّدة ..

أنه كان هناك انفجار هائل كبير فى (تانجسكا) ، ما يزال يحمل حتى اليوم اسم (انفجار سيبيريا) ..

أو الانفجار الغامض .

د. نبيل فاروق





مذكرات شخص

أنجبتنى أمى ..

أظن أن هذه هى البداية الطبيعية ، بالنسبة لتاريخ كل شخص ، على الرغم من أننى أذكر جيدًا الكثير من الأحداث ، التى حدثت قبل مولدى ، عندما كنت أرقد منعمًا هادئ البال ، فى رحم أمى ، لا أفكر فى غذاء أو كساء ، أو مسكن ، وكل شىء يصلنى بانتظام ودقة وجودة ..

آه .. يا لها من أيام !

ولكن دعونا ننسى - أو نتناسى - تلك الأيام السعيدة ، قبل أن تملأ الحسرة قلوبنا ، ونتحدَّث عن أيامنا فى الدنيا ..

كل ما أذكره عن البداية هو أن وصولى إلى الدنيا لم يرق لى كثيرًا ، فقد انفجرت باكيًا ، وحاولت أن أركل من حولى ،

وأضربهم ، معترضًا على إخراجى من منزلى ، الذى عشت فيه تسعة شهور كاملة ، ولكن الجميع تجاهلوا اعتراضى تمامًا ، وراحوا يتبادلون التهنئة فى سعادة ، وكأن رأيى هذا لا قيمة له ، وافترضت إحدى الزائرات أن بكائى يعود إلى عامل الجوع ، وحاولت الاعتراض على هذا أيضًا ، ولكنهم أغلقوا فمى بمصدر غذاء ، قاومته فى البداية ، لأعلن أن هذا ليس سبب الرفض ، ولكن إصرارهم جعلنى أستسلم ، وأرضع غذائى فى صمت ..

وأدركت أن الوقت لم يحن بعد للاعتراض ، ولا لأن تتكون لدى شخصية مستقلة ، فآثرت الصمت ، انتظارًا للحظة المناسبة ..

وطوال الأشهر التالية لم يستمع إلى أحد ، كلما بكيت معترضًا ، أو محاولا إبداء رأيى ، وأنا أشعر بالغيظ ، لأننى لا أستطيع التعبير عن موقفى ، وبدا من الواضح أننى لن أمتلك تلك الشخصية المستقلة ، التى أحلم بها ، إلا عندما أتعلم الكلام ..

وانتظرت ..

ومع مرور الوقت ، رحت أكتسب القدرة على الكلام ، فأنطق كلمات منفردة ، أو مجتمعة ، وأصبحت هذه الكلمات واضحة ، واستطعت أن أصنع جملًا مفهومة ، كان الجميع يصفقون سعادة بها فى البداية ، حتى أننى تصورت أن لحظة إبداء الرأى قد أتت ، ولكن ..

فجأة أصبح كلامى سخيفًا وثقيلًا بالنسبة لهم ، وكلما أردت توضيح وجهة نظر ، أو مناقشة أمر ما ، صرخت أمى تطالبنى

بالصمت ، وثار والدى ؛ لأنه مشغول ، وضربنى شقيقى الأكبر ، أو يتطلع إلىَّ الجميع بسخرية ، ويقولون فى استخفاف :

ـ كلام عيال .

وابتلعت غضبى ، ولذت بالصمت مرة أخرى ، وأنا أتساءل : لماذا كانت سعادتهم بتعلمى الكلام ، ما داموا يرفضون الاستماع إلىَّ دائمًا ..

والتحقت بالدراسة ، ولم يتغير الأمر كثيرًا ، بل زاد عدد الذين يعترضون على حديثى ، ويسفهون آرائى ، فلم يعد من المسموح أن أتحدث فى الفصل ، أو بعد الفصل ، أو فى أثناء عمل الواجبات المدرسية ، أو حتى بعد الانتهاء منها ..

لم يعد لى رأى خاص على الإطلاق ..

إنهم يضعون المقررات الدراسية ، ثم يعدلونها ، ويضيفون إليها بعد بدء الدراسة ، ثم يحذفون ما أضافوه قبل منتصف العام ، ويغيرون المقررات كلها قبل الامتحانات بأيام ، ثم يحذفون عامًا من سنوات دراستى الابتدائية ، ويضيفونه إلى الثانوية العامة ، ويقسمون الطلاب إلى أقسام علمية وأدبية ، ثم يقسمون طلاب المواد العلمية إلى قسم للعلوم وآخر للرياضيات ، وفجأة يعلنون أن هذا كله خطأ ، ويبدأون من البداية ، دون أن يأخذ أحدهم رأيى ، ولو مرة واحدة فيما يفعلونه بى ..

ولكن لكل شىء نهاية ..

وانتهت مرحلة دراستى الثانوية ، وحصلت على شهادتها بتفوق ، وأدركت أن مرحلة شخصيتى المستقلة قد حانت ، فأعلن

بكل حسم أننى سألتحق بكلية الحقوق ، على الرغم من المجموع المرتفع ، الذى حصلت عليه ؛ لأننى أرغب فى أن أصبح محاميًا شهيرًا ..

ولكن النيران تشتعل فى منزلى ..

أبى يصرخ فى وجهى ، ويتهمنى بالغباء ، وأمى تلطم خديها فى حسرة ، وتولول ناعية سوء حظها ، وجدى ينهار ، ويصاب بأزمة قلبية ، وشقيقى الأكبر يقترح بكل جدية إيداعى مستشفى الأمراض العقلية ؛ لأننى أرفض الالتحاق بكلية الطب ، التى يلتحق بها أصحاب المجاميع المرتفعة عادة ..

ولا يصبح أمامى سوى الاستسلام ..

ودخول كلية الطب ..

وفى الكلية أدركت منذ البداية أنها ليست ـ بالتأكيد ـ مرحلة تكوين شخصية قوية ، أو مستقلة ، أو أية شخصية على الإطلاق ؛ فالكل يطالبنى بحفظ المقررات عن ظهر قلب ، دون مناقشة أو استفسار ، بغض النظر عن الفهم والتفكير ، حتى أنجح فى الامتحان ، وإلا ...

ولأننى خبير فى هذا الأسلوب ، فقد نجحت فى كل سنوات الدراسة بكيلة الطب ، وحصلت على شهادة البكالوريوس بدرجة جيد ، وتصورت أن هذا هو آخر المطاف ، وأننى سأصبح أخيرًا طبيبًا مرموقًا ، يشار إليه بالبنان ، ويقف له الجميع احترامًا ، وله رأى مستقل ، وشخصية متميزة ، و ...

ولكن هذا لم يحدث ..

لقد أصبحت مجرد طبيب امتياز ، لا يشعر ، أو يأبه به أى مخلوق فى المستشفى ، حتى الممرضات والمرضى ، والكل يعتبرنى مصدر خطر ، ينبغى تفاديه ، وتجاهل أفكاره وآرائه تمامًا ..

وتنتهى فترة الامتياز ، وتبدأ مرحلة التكليف الإجبارى ، فأتقدم بطلب لنقلى إلى أقاصى الصعيد ، متصورًا أننى سأحظى هناك بالشخصية المستقلة ، والرأى المحترم ، نظرًا لندرة الأطباء الشديدة هناك ..

ولكن حتى المسئولين فى الوزارة يتجاهلون رغبتى ، وينقلوننى إلى (الإسكندرية) ، التى تكتظ بالأطباء ، ولست أدرى لماذا فعلوا هذا ؟..

وفى (الإسكندرية) ألتحق بمستشفى ضخم ، شديد الازدحام بالمرضى والأطباء ، ويتجاهلنى الجميع ، ولا أجد الوقت أو المكان لإثبات شخصيتى ، ولكننى ألتقى هناك بفتاة لطيفة ، يخفق لها قلبى ، فأنسى الطب والأطباء ، وأتقرب إليها ، وأطلب منها مقابلة والدها ، ولكنها تخبرنى أن هذا لن يفيد ، وأن الخطوة العملية هى مقابلة صاحبة الكلمة الأخيرة فى البيت ..

أمها ..

وأقابل الأم ، التى تنظر إلىّ من أسفل ، وتقلب شفتيها فى

امتعاض ، وتهز رأسها فى حسرة ، ثم تسألنى عن راتبى ، ودخلى الشهرى ، ومؤهلاتى ، فألتقط نفسًا عميقًا ، وأجيب أسئلتها ..

وما أن تسمع الأم الجواب ، حتى تصرخ فى ذعر ، وتضرب صدرها بكفها فى ارتياع ، وتسقط فاقدة الوعى ، فأسرع بإنعاشها ، وزوجها يبتسم ابتسامة خبيثة متشفية ، حتى استعادت وعيها ، فرسم الجزع واللهفة على ملامحه ، وتظاهر بالخوف الشديد عليها ..

وبدأت جولة جديدة من المباحثات ، استطعت إقناع الأم خلالها أن أبى سوف يساعدنى ماديًا ، وأننى سأفتتح (بإذن الله) عيادة طبية ؛ للحصول على مزيد من الدخل ، حتى وافقت الأم فى حسرة ؛ لأن ابنتها توافق على الارتباط بى ..

وتمت الخطبة فى حفل عائلى بسيط ، اكتفت أمى وحماتى فيه بتبادل بعض عبارات التبكيت والتسخيف الملتوية ، دون أن تتشابكا بالأيدى ، احترامًا للمناسبة ..

وبعد كفاح مرير ، للحصول على شقة صغيرة ، ودفع الشبكة والمهر وخلافه ، حان موعد الزفاف ، وأبلغتنى حماتى أنها ترغب فى عقد مؤتمر قمة مصغر ، لمناقشة تفاصيل حفل الزفاف ، فأذهب إليها صاغرًا مستسلمًا ، لتملى علىّ شروطها ، كأية دولة منتصرة ، حتى نبلغ ثوب الزفاف ، فتطالبنى بأن يكون مرتفع الثمن للغاية ، حتى يتجاوز تكلفة حفل الزفاف كله ..

ولأننى غبى ، ولم أستوعب القاعدة بعد ، فأنا أسألها فى سذاجة وبراءة عن سبب إنفاق كل هذا المبلغ ؛ لشراء ثوب زفاف ، لن يتم ارتدائه سوى مرة واحدة ..

وهنا أيضًا تصرخ حماتى ، وتمصمص شفتيها ، وتتحسر على ابنتها ، ثم تبدأ فى ذكر ثمن ثوب زفاف ابنة عمها ، وابنة خالتها ، وابنة الجيران ، وحتى ابنة (سبارتاكوس) محرر العبيد ..

وأستسلم كالمعتاد ..

ويتم الزفاف ..

ومنذ اللحظة الأولى أردت أن أذبح القط كما يقولون ، ولكن زوجتى ، التى بدت رقيقة طوال فترة الخطوبة ، ذبحت قبيلة من الأسود ، وأغرقتنى بدمها ، وأثبتت لى أن قلب القدرة على فوهتها ، يجعل الأم مثالًا لابنتها ..

وبدأت أحلامى فى الشخصية المستقلة تنكمش وتتلاشى ..

وأنجبنا ابننا الأول ..

واختارت له زوجتى اسم جدها ، على الرغم من أننى أردت منحه اسم جدى أنا ..

ثم قررت حماتى أن تقيم حفل (السبوع) ..

وسألت فى سذاجة :

ـ هل (السبوع) عادة إسلامية ؟

وجاء الجواب على هيئة نظرة صارمة من حماتى ، وشهقة من زوجتى ، و ...

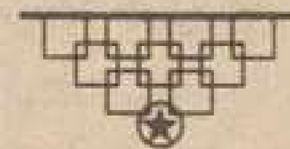
وكان حفل (السبوع) كبيرًا ، التهم معظم مدخراتى كالمعتاد ..

ومضت السنوات على النمط نفسه ، وأصبحت فكرة الشخصية المستقلة مجرَّد ذكريات ، استعادها ذهنى وأنا على فراش الموت ، فابتسمت ، وبدأت أضحك بصوت مرتفع ، جعل الورثة يتطلَّعون إلىَّ فى دهشة ، حتى لفظت أنفاسى الأخيرة بينهم ، وهم يناقشون فكرة توزيع الثروة بالتساوى ، ويحسبون الأرقام بالآلة الحاسبة ، دون أن ينتبه أحدهم لموتى ، قبل ربع ساعة على الأقل ، و ...

وماذا تنتظرون بعد كل هذا ؟..

لقد انتهت رحلة البحث عن شخصية مستقلة ، و ...

وانتهت المذكرات .



كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

قصة العدد



المهمة

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

١ ـ الرسـالة ..

« أين الفارس (فخر الدين) ؟.. السلطان يطلبه على الفور .. » .

تردد ذلك النداء فى معسكر الفرسان ، وتنقَّل من فارس إلى آخر ، حتى بلغ مسامع (فخر) ، فهب لتلبية النداء ، وقطع المعسكر كله فى خطوات سريعة قوية ، وهو يمسك مقبض سيفه المستقرّ فى غمده ، وكأنه يعلن استعداده للموت فى سبيل قائده ، وقضيته ، ورأسه يرتفع فى اعتداد شديد كعادته ، حتى بلغ خيمة السلطان ، فأزاح أستارها فى حذر ، وهو يتنحنح ؛ ليعلن عن قدومه ، قبل أن يقول بصوته الواثق الحازم القوى :

ـ (فخر الدين) فى خدمتك يا مولاى .

كان السلطان (صلاح الدين الأيوبى)(*) منهمكا فى دراسة خريطة بدائية ، رسمها بعض رجاله على رقعة من الجلد ، وحوله عدد من قادته ورجاله ، إلا أنه رفع عينيه عن كل هذا ، والتفت إلى (فخر) ، وقال بصوته الهادئ القوى :

(*) (صلاح الدين الأيوبى) (٥٣٢ ـ ٥٨٩ هـ / ١١٣٧ ـ ١١٩٣ م) : مؤسس الأسرة الأيوبية فى (مصر) ، عاش عشر سنوات فى بلاط (نور الدين محمود) ، واشترك مع عمه (أسد الدين شيركوه) ، فى الحملات على (مصر) ، ثم قضى على الخلافة الفاطمية فى (مصر) ، وأعلن نفسه سلطانا عليها ، وحارب الصليبيين ، وهزمهم فى معركة (حطين) ، وبعدها عقد صلح الرملة ، مع (ريتشارد قلب الأسد) ، وشرع فى بناء القلعة فى (القاهرة) ، ثم مات فى (دمشق) ، ودفن بها .

ـ ادخل يا (فخر الدين) .

تقدَّم (فخر) إلى حيث يقف قائده ، الذى وضع يده على كتفه ، وقال فى لهجة تشف عن خطورة الأمر :

ـ أحتاج إليك فى مهمة بالغة الأهمية والخطورة يا ولدى .

شدَّد (فخر) قبضته على مقبض سيفه ، وهو يقول :

ـ روحى فداء مولاى .

ربَت (صلاح الدين) على كتف فارسه ، وقال :

ـ بل روحك فداء دينك ووطنك يا ولدى .

والتفت فى حسم إلى الخريطة البدائية ، واستطرد بسرعة .

ـ أنت تعلم أننا على وشك الدخول فى معركة فاصلة حاسمة مع الأعداء ، بعد أن وحّدوا صفوفهم ، وأصبحت قيادة جيوشهم كلها تحت قيادة (ريتشارد قلب الأسد)(*) ، ولكننا لا ندرى بعد ، أى منطقة تصلح للقتال معهم ، ولا أية منطقة اختاروها لذلك ، وبعض المستشارين هنا يقترحون (حطين)(**) ، فى حين يقترح البعض الآخر (طبرية) ، ولكن الأمر يحتاج إلى حسم تام ، وإلى تحديد لا يقبل الشك .. أهى (حطين) أم (طبرية) .

(*) (ريتشارد قلب الأسد) (١١٥٧ ـ ١١٩٩ م) : يعرف أيضا باسم (ريتشارد الأول) ، وهو ملك (انجلترا) ، الذى اشترك فى الحروب الصليبية ، وبعد أن هزم ، ووقع معاهدة الصلح مع (صلاح الدين الأيوبى) ، أسر أثناء عودته ، ودفع فدية كبيرة لإطلاق سراحه ، ثم قُتل فى حربه مع (فرنسا) .

(**) (حطين) : قرية فى (فلسطين) ، غرب بحيرة (طبرية) ، هزم فيها (صلاح الدين الأيوبى) الصليبيين هزيمة طاحنة ، استعاد بعدها المسلمون بيت المقدس .

ثم التفت مرة أخرى إلى (فخر) ، مستطردًا :

ـ وهذه هى مهمتك .

اعتدل (فخر) ، ونصب هامته فى اعتداد ، قائلًا :

ـ أنا لها يا مولاى .

التقط (صلاح الدين) رسالة ملفوفة فى إحكام ، ومختومة بخاتم السلطان ، وناولها إلى (فخر) ، قائلًا :

ـ ستذهب بهذه الرسالة إلى (مصر) ، وتسلّمها إلى شقيقى ، فلديه معلومات بالغة الأهمية ، نحتاج إليها فى شدة ،حتى تصبح حربنا ناجحة ، وننهى ذلك القتال ، الذى بدأ أيام أجدادنا ، وعانى فيه شعبنا الويلات ..

وتنهّد فى أسى ، قبل أن يتابع :

ـ ستسلّم هذه الرسالة إلى شقيقى ، وسيسلمك هو رسالة أخرى ، تحوى كل ما نحتاج إليه من معلومات وأسرار .

والتقى حاجباه ، وهو يستطرد فى حزم :

ـ وهذه المهمة ليست بسيطة يا (فخر الدين) ؛ فالأعداء مستعدون لدفع نصف حياتهم ، مقابل معرفة ما لدينا ، وسيبذلون أقصى طاقاتهم للحصول عليها ، ومنعها من الوصول إلينا ، وسيحاولون التخلّص منك ، أو الإيقاع بك وخداعك ، وعليك أنت أن تبذل روحك نفسها ، لو اقتضى الأمر ، حتى تصل الرسالة إلينا ، ولا تقع فى أيديهم .

قال (فخر) فى حزم :

ـ اطمئن يا مـ

ربّت (صلاح ا ، وقال وهو يتطلّع إلى عينيه مباشرة :

ـ انطلق على بركة الله يـ ولدى .. وقم بمهمتك على أكمل وجه .

وضع (فخر) الرسالة فى حزامه ، وهو يقول :

ـ سأفعل ما بوسعى يا مولاى .

قال (صلاح الدين) :

ـ وتذكّر دائمًا ، إذا ما تعقّدت الأمور ، أنه من الأفضل تدمير الرسالة ، على وقوعها فى أيديهم .

أومأ (فخر) برأسه فى حزم ، ثم قال :

ـ إلى اللقاء بإذن الله يا مولاى .

غمغم (صلاح الدين) :

ـ بإذن الله يا ولدى .

واستدار (فخر) ، واتجه إلى الخارج فى حزم ، ولم يكد يزيح أستار الخيمة ، حتى ناداه (صلاح الدين) مرة أخرى ، وقال :

ـ بروحك يا (فخر الدين) .

أجابه (فخر) فى حزم :

ـ بروحى يا مولاى .

وبدأ مهمته ..

★ ★ ★

اعتدل (ريتشارد قلب الأسد) بقامته الممشوقة ، وجسده القوى ،

فوق ذلك المقعد الخشبى الشبيه بعرشه ، والذى يحتلّ موقعًا بارزًا فى خيمته الضخمة ، وهو يستمع إلى أحد جواسيسه ، الذى يقول فى حماس :

ـ وهكذا غادر (فخر الدين) المعسكر إلى (مصر) .. وسيعود حاملًا الرسالة الأخرى ، وأرى أن نهاجمه ونقتله ، قبل أن يصل يامولاى .

عقد ريتشارد حاجبيه مفكرًا بعض الوقت ، ثم هزّ رأسه نفيًا ، وقال :

ـ خطأ يا رجل .. لسنا نحتاج إلى منع وصول رسالة (صلاح الدين) إلى شقيقه ، بقدر ما نحتاج إلى معرفة فحوى رسالة شقيقه إليه ، وما تحويه من معلومات عنا .. الفضول ينهشنى فى شدة ، لمعرفة تلك المعلومات ، التى لا تتوافر لرجل مثل (صلاح الدين) ، فى ساحة المعركة ، وتتوافر لشقيقه فى (القاهرة) ، ويحتاجها هو إلى هذا الحد .

قال مستشاره ، الذى يقف إلى جوار العرش :

ـ ربما كانت معلومات من بلادنا يا مولاى ، تصف عتادنا وجيوشنا ، التى وصلت إلى هنا ، لتدعيم قوتنا ، قبل الحرب الفاصلة .. هذا هو التفسير المنطقى الوحيد ، فربما حمل جاسوس هذه المعلومات من (أوروبا) إلى (الإسكندرية) ، وأرسل (صلاح الدين) فارسه هذا لإحضارها .

التقى حاجبا (ريتشارد) فى شدة ، وهو يقول :

فى هذه الحالة يكون الأمر بالغ الخطورة بالفعل .

ونهض عن عرشه ، فتراجع الجميع فى هيبة ، وهم ينحنون ، وهبط هو إلى أرض الخيمة ، وراح يتحرّك لحظات فى صمت ، وهو يداعب لحيته الكثة بأصابعه ، ثم لم يلبث أن توقف ، وقال فى حزم :

ـ أريد هذه الرسالة .. أريدها بعد خروج فارس (صلاح الدين) من (القاهرة) ، وقبل عودته إلى هنا .. أريد معرفة ما تحويه بالضبط ، ومنع وصولها إلى (صلاح الدين) فى الوقت ذاته .

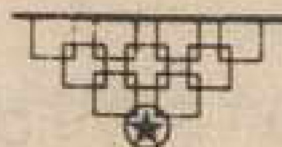
ثم ضرب سطح منضدة قريبة بقبضته فى غضب ، صارخًا :

ـ أريد هذه الرسالة .

انتفض الحاضرون فى خوف ، وانحنى مستشاره ، وهو يقول :

ـ كما تأمر يا مولاى .. كما تأمر .

وبدأت مهمة ثانية ..



٢ ـ الصاعقة ..

تألق البرق فى السماء ، وانهمرت الأمطار فى شدة ، فى تلك الليلة ، و(فخر) يعبر أسوار (القاهرة) ، وينطلق على متن جواده ، وسط العاصفة والظلام ، حاملا الرسالة ، التى تحوى كل الأسرار والمعلومات ، التى يطلبها (صلاح الدين الأيوبى) ..

كانت رحلته إلى (القاهرة) قد انتهت فى سلام ، وسلم الرسالة إلى شقيق (صلاح الدين) ، الذى طالعها فى اهتمام ، ثم سلمه رسالة أخرى ، مختومة بخاتم السلطنة ، وأوصاه بضرورة الحفاظ عليها ، والعمل على توصيلها إلى السلطان ، فى أسرع وقت ممكن ، ومهما كانت العقبات ..

وكان هذا هو الجزء الأصعب من المهمة ، والأكثر خطورة فى رأيه ..

ولكن (فخر) كان فارسا صنديدا ، لا يرتجف قلبه أمام الصعاب ، ولا يتراجع أبدا أمام المخاطر ..

كان فارسا بمعنى الكلمة ..

وعلى الرغم من الرياح والأمطار ، والبرق والعواصف والظلام ، انطلق (فخر) على ظهر جواده ، وكيانه كله لا يحمل سوى هدف واحد ..

المهمة ..

ولكن فجأة ظهر هؤلاء الفرسان ..

خمسة فرسان أشداء ، اعترضوا طريقه بجيادهم وسيوفهم ،

وهم يرتدون الثياب العربية ، فجذب عنان جواده ، وخفف من سرعته ، وهو يقول فى غضب :

ـ أفسحوا الطريق يا أخوة العرب .

ولكن أحدهم قال بلكنته الأجنبية الواضحة ، فى صرامة شديدة :

ـ نريد الرسالة .

عندئذ فهم (فخر) الأمر كله ، فقفزت قبضته إلى مقبض سيفه ، وهو يقول :

ـ أية رسالة ؟

صاح به الفارس الصليبى فى خشونة .

ـ أعطنا رسالة (صلاح الدين) ، أو نمزقك شر ممزق .

التقى حاجبا (فخر) ، وهو يقول :

ـ إذن فأنت تضعنى أمام خيار أيها الأجنبى .

شهر الرجل سيفه فى وجه (فخر) ، والتف الآخرون حوله بسيوفهم ، وهو يقول فى غلظة مخيفة :

ـ هذا صحيح أيها العربى .

استل (فخر) سيفه بحركة سريعة صارمة ، وهو يهتف :

ـ لقد اخترت إذن .

والتقت السيوف ..

كان صليلها مخيفًا ، متصلًا ، كاد يعلو ـ فى بعض الضربات ـ على هزيم الرعد ، و(فخر) يقاتل الفرسان الخمسة فى بسالة وقوة وإصرار ..

ولكن ماذا يفعل فارس منفرد ، أمام خمسة من أقوى الفرسان ؟!..

وقفزت إلى ذهن (فخر) كلمة واحدة ، وهو يتراجع مقاتلًا .. الرسالة ..

لابد من تدمير الرسالة ، لو لم يكن النصر مضمونًا ، فى هذا القتال ..

وبكل الحزم ، غاص سيفه فى قلب أحد الفرسان الخمسة ، ثم خرج ليضرب ذراع فارس ثان ، قبل أن يلكز (فخر) بطن جواده بكعبية ، ثم ينطلق وسط الفرسان ، مبتعدًا عن ساحة القتال ..

لم يكن يبغض فى حياته كلها أشد من الفرار ، إلا أن طبيعة الأمر كانت تحتم عليه هذا ، فالقتال غير متكافئ ، ولو قتله هؤلاء الأعداء ستقع الرسالة فى أيديهم ، وتفشل مهمته ..

ولقد وعد قائده وسلطانه ..

وعده ألا تقع الرسالة فى أيدى الأعداء ..

مهما كان الثمن ..

وفى غضب ، صاح قائد الفرسان :

ـ خلفه يا رجال .. خذوا منه الرسالة .

وبدأت مطاردة رهيبة ..

كان (فخر) ينطلق بكل قوته ، وجواده ينهب الأرض نهبًا ، وخلفه أربعة من الفرسان ، على جياد قوية ، تمتزج رغبتهم فى النصر بغضبهم لمصرع أحد زملائهم ، فيفجر المزيج فى أعماقهم

إصرارًا رهيبًا ، على الفوز بالرسالة ، وتمزيق (فخر) شر ممزق ..

وعلى الرغم من قوة جواد (فخر) ، إلا أن الفرسان الأربعة لم يلبثوا أن لحقوا به ، وانقضوا عليه بسيوفهم مرة أخرى ، وضرب قائدهم حزام سرج الجواد ، وهو يصرخ :

ـ ستموت أيها العربى .. ستموت حتمًا .

أصابت الضربة بطن الجواد ، ومزقت الحزام ، ففقد (فخر) توازنه ، وسقط من فوق الجواد ، وقائد الفرسان يصرخ :

ـ ها هوذا بين أيدينا .. اقتلوه .. اقتلوه بلا رحمة .

هب (فخر) واقفًا على قدميه ، وألقى نظرة سريعة على جواده ، الذى يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ثم أمسك الرسالة ، التى يخفيها فى طيات ثيابه ، بكل قوته ، وأمسك سيفه باليد الأخرى ، وانطلق يعدو ، وخلفه الفرسان الأربعة على جيادهم ، وقائدهم يهتف فى ظفر :

ـ لقد وقع فى أيدينا .

كان من الصعب ـ بل من المستحيل ـ أن ينجح (فخر) فى الفرار على قدميه ـ مهما بلغت سرعته ـ من الجياد الأربعة ، ولكن كل ذرة فى أعماقه كانت تشعر بالألم والمرارة ، وهو يجد نفسه عاجزًا ، حتى عن تمزيق وتدمير الرسالة ..

لو توقف لحظة واحدة فسيلحقون به ، ويحصلون عليها ..

ولو واصل العدو أيضًا فسيلحقون به ..



ويحصلون على الرسالة ..

وفى حزم اتخذ قراره ..

وبانحرافة مباغتة ، اتجه إلى جذع شجـرة كبيـرة ، وأخـرج الرسالة من جيبه وصاح وهو يرفع سيفه ، ليهوى به عليها :

ـ لن تحصلوا عليها أبدًا ..

وفجـأة .. وقبل أن يهـوى سيفه ، هوت الصاعقة ..

التمعت السمـاء ببريق قوى رهيب ، وهوت صاعقة هائلة على الشجرة ..

وعلى (فخر) مباشرة ..

وأمام أعين الفرسان الأربعة ، تألق (فخر) كشمس صغيرة ، وأحاطت بجسده هالة كبيرة ، احتوته فى لحظة واحدة ، ثم انكمشت فى سرعة مذهلة ، و ...

وتلاشى معها (فخر) ..

وفى ذهول ، توقف الفرسان الأربعة ، وغمغم قائدهم مشدوهًا :

ـ لقد .. لقد اختفى .

ولم يجبه أحد رجاله ..

لقد شملهم الذهول ..

الذهول التام ..

★ ★ ★

لم يكن هناك أى ألم ..

كل ما شعر به (فخر) مجرَّد دغدغة خفيفة ، سرت فى كل خلية من خلاياه ، عندما أحاطت به تلك الهالة الكبيرة ، ثم اعتصرته فى لحظة واحدة ، وعبرت جسده ، لتستقر فى أعماقه ..

ثم انتفض (فخر) ..

انتفض وهو يحدِّق فى تلك الأضواء المبهرة ، التى ظهرت أمامه فجأة ، فى نفس الموضع ، الذى كان يقف فيه الفرسان الأربعة ، والذين اختفوا بدورهم من أمامه ، وتلاشوا ، وكأنه لم يكن لهم وجود من قبل أبدًا ..

ولم يكن وحده يشعر بالدهشة ..

كان هناك أربعة أشخاص يشاركونه دهشته ، داخل كابينة زجاجية كبيرة ، تحميهم من المطر المنهمر ، وتحمى أجهزتهم التكنولوجية ، التى اعتمدوا عليها فى إجراء تجربتهم العجيبة ..

كانوا ثلاثة من الرجال وامرأة واحدة ، هى أول من قطع الصمت والذهول ، وهى تنهض من مقعدها ، وتشير إلى (فخر) ، قائلة :

ـ من هذا ؟.. ومن أين أتى ؟

رآها (فخر) تشير إليه ، فشدَّد قبضته على الرسالة ، وأمسك مقبض سيفه بقبضته الأخرى ، وكيانه كله ينتفض فى حيرة وتوتر ورهبة ، وهو يدير عينيه فى تلك الأجسام المعدنية ، التى تنبعث من منتصفها أضواء مبهرة ، تفوق أكثر الأضواء التى يعرفها سطوعًا ، باستثناء ضوء الشمس ..

ومن بعيد ، لاحت له أضواء أخرى متناثرة ، وكأن النجوم هبطت إلى الأرض ، وتراصت فوق الجبال ..

ولم يفهم (فخر) من أين أتى كل هذا ؟

لم يفهم حتى ماذا حدث ؟

كل ما كان يفهمه ويدركه ، فى هذه اللحظة ، هو أن الرسالة ما تزال فى يده ، وأن المهمة لم تفشل بعد ..

وقبل أن يفكر فيما حدث ، أو يسمح لعقله بالحيرة والذهول ، انطلق (فخر) يعدو مبتعدًا ، وأحد الرجال الثلاثة يغادر الكابينة الزجاجية ، ويهتف به :

- أنت .. انتظر ..

ولكن (فخر) لم يتوقف ، وإنما راح يبتعد وهو يركض بكل قوته ، وعقله يكاد ينفجر من شدة الحيرة والتوتر ، ويتساءل فى ذهول :

- ماذا حدث ؟.. أين أنا ؟

ولم يكن يدرك ، أو يمكن أن يدرك أبدًا حقيقة ذلك الأمر ، الذى يفوق حتى إدراك من ولدوا بعده بثمانية قرون كاملة ..

أو بمعنى أدق ، أولئك الذين يحيون ويعيشون فى ذلك القرن ، الذى قفز إليه فجأة عبر الزمن ..

القرن العشرين ..

★ ★ ★

سطع البرق فى السماء ، وعبر الضوء نافذة حجرة مكتب (خيرى الجمّال) ، صاحب ومدير واحدة من شركات الاستيراد والتصدير الكبرى ، وسقط على وجه سكرتيرته (فاطمة) ، التى بدت شاحبة كالموتى ، وهى تجلس بين أربعة من العمالقة الأشداء ، غلاظ الملامح والقلوب ، وتتطلع فى ذعر واضح إلى (خيرى)

نفسه ، الذى التقط نفسًا عميقًا من سيجاره ، ونفثه فى سقف الحجرة ، قبل أن يخفض عينيه إليها ، ويقول فى صرامة :

- إذن فأنت تعرفين كل شىء .

ازداد وجهها شحوبًا ، وانكمشت فى مقعدها أكثر وأكثر ، وهى تقول بصوت مختنق مبحوح ، يرتجف كل حرف فيه على شفتيها المرتعدتين :

- لم أقصد هذا يا (خيرى) بك .. لم أقصده بالتأكيد .. كل هذا حدث بالمصادفة .

ابتسم فى سخرية وحشية ، وهو يقول :

- بالمصادفة ؟!.. يا لها من مصادفة عجيبة ، تلك التى جعلتك تعرفين أسرارنا ، وتسرقين بعض الوثائق ، التى تكفى لإدانتى ، وإعدامى على أقل تقدير ، وتحتفظين بها فى مكان مجهول .

ثم مال نحوها ، وأضاف فى غضب ، وهو يضرب بيده مظروفًا منتفخًا ، على سطح مكتبه :

- بل تجرئين على تهديدى بها .

لوّحت بكفيها ، وهى تقول فى ارتياع بالغ :

- ولقد استعدت أنت كل الأوراق والوثائق ، وتعلم جيدًا أننى تورّطت مثلكم فى هذا العمل القذر ، ولن يمكننى إبلاغ الشرطة .. أطلق سراحى إذن ، و...

قاطعها بصوت هادر :

- خطأ .

حاولت أن تنكمش مرة أخرى فى مقعدها ، ولكن جسدها الضئيل كان قد انكمش فى المقعد ، حتى كاد ينطبق عليه ، ولم يعد هناك مجال لانكماش آخر ، وهو يتابع بصوته المخيف :

- أين العقاب إذن ؟.. لقد جرؤت يومًا على تحدى (خيرى الجمّال) .. فهل يمرّ هذا دون عقاب ؟

اتسعت عيناها فى هلع ، وهو ينفث دخان سيجاره ، قبل أن يستطرد :

- يبدو أنك لا تدركين كيف كوّنت سمعتى .. إننى أحارب فى عالمين ، لا يعرف أيهما الرحمة .. عالم المال والأعمال الرسمى المعروف ، وعالمنا السرى ، الذى ننتمى إليه .. وفى العالمين اعتاد الجميع أن من يجرؤ على إغضابى ينال عادة عقابًا قاسيًا رادعًا .. لا يردعه وحده فحسب ، وإنما يكفى لترتعد فرائص كل من تسوّل له نفسه الاقتراب منى .

ثم مال نحوها ، وابتسم ابتسامة مخيفة ، مع مواصلته :

- وهذا ما سأفعله بك يا عزيزتى .

ارتجفت شفتاها ، وتجمّد جسدها كله ، كما لو كانت داخل ثلاجة كبيرة ، وهو يعتدل ، ويشير إلى أحد الرجال الأربعة ، الذى يحيطون بها ، ويقول فى صرامة :

- هيا .. إنه هذا العمل .

انتقلت ابتسامته الرهيبة إلى شفتى الرجل ، الذى مال نحوها ، وهو يحلّ رباط عنقه ، ثم استعد ليحيط به عنقها ، و ...

وفجأة انطفأت أنوار الحجرة ، وانقطع التيار الكهربى ..

ولم تدر (فاطمة) ماذا أصابها عندئذ !.

لقد دبّت فى جسدها قوة مباغتة ، وكأنما جاء انقطاع التيار لينقذها من براثن (خيرى) ورجاله ، فانزلقت بحركة رشيقة

سريعة ، ساعدها عليها جسدها الضئيل ، وانفلتت من بين ذراعى الرجل الضخم ، قبل أن يحيط عنقها برباط عنقه ، و(خيرى) يهتف فى عصبية :

- اشعلوا المصابيح الإضافية .. أو حتى قدّاحاتكم .. إننى أكره الظلام .

وبحركة سريعة ، وثبت (فاطمة) نحو المكتب ، وشحذت ذاكرتها ؛ لتحدّد موضع المظروف بالضبط ، وسط الظلام الدامس ، ومدّت يدها تلتقطه ، والرجل يهتف :

- لقد هربت الفتاة .

صاح (خيرى) :

- هربت ؟!.. ماذا تعنى بالضبط ؟

وهنا سطع البرق مرة أخرى فى السماء ..

وعلى ضوء البرق ، وقع بصرها على المظروف . ووقع بصر الرجال عليها ، وصاح (خيرى) :

- ها هى ذى .. اقبضوا عليها .

وبحركة آلية ، اختطفت (فاطمة) مظروف الوثائق المنتفخ ، وقفزت مبتعدة عن قبضات الرجال الأربعة ، الذين عادوا يتخبطون فى الظلام الدامس ، و(خيرى) يهتف بهم :

- ماذا أصابكم ؟ .. هل ستسمحون لها بخداعكم هكذا ؟

ولكن (فاطمة) كانت قد بلغت باب الحجرة ، فدفعته بجسدها ، وانطلقت تعدو بكل قوتها ، و(خيرى) يصرخ خلفها :

ـ الحقوا بها .. اقتلوها ..

وانطلق الرجال الأربعة خلفها ..

وعلى الرغم من الظلام الدامس ، راحت (فاطمة) تعدو هابطة سلم البناية ، ووقع أقدام الرجال الأربعة يطاردها ، حتى بلغت المدخل ، فصاحت بحارس الأمن هناك :

ـ أسرع .. إنهم يريدونك بأعلى .

تحرَّك الرجل على نحو غريزى ، واندفع نحو السلّم ، فى حين اندفعت هى عبر المدخل ، وواصلت عدوها خارج المبنى ، وسط المنطقة المقفرة المهجورة ، التى تحيط به ..

وصاح أحد الرجال الأربعة خلفها :

ـ توقَّفى ، أو أطلق النار .

ولكنها لم تتوقَّف ..

كانت تعلم أن توقُّفها أو استمرارها يحملان النهاية نفسها ؛ لذا فقد واصلت عدوها ، حتى بلغت سيارتها الصغيرة ، فقفزت داخلها ، وأدارت محرِّكها ، وهى تقول مرتعدة :

ـ هيَّا أيتها الصغيرة .. لا تخذلى صاحبتك هذه المرة .. انطلقى بكل قوتك .. هيا .

لم يستجب لها المحرِّك العتيق فى البداية ، واقترب منها الرجال الأربعة أكثر وأكثر ..

ثم استجاب المحرِّك ..

وفى اللحظة الأخيرة ، وقبل أن يبلغها الرجال الأربعة ، انطلقت

بها السيارة الصغيرة ، وعبرت شريطًا غير ممهَّد من الأرض ، قبل أن تثب إلى الطريق الأسفلتى ، وقائد الرجال الأربعة يصيح :

ـ أحضروا (المرسيدس) .. سنطارد هذه اللعينة .

أما هى ، فقد انطلقت مبتعدة ، بأقصى سرعة يسمح بها محرِّك السيارة الصغيرة ، وهى تقول مرتجفة :

ـ أنقذنى يا ربى .. أنقذنى ..

كانت تندفع بالسيارة ، وقلبها يخفق بشدة ، عندما اندفع أمامها شبح عبر الطريق ، وتوقَّف فجأة أمام أضواء السيارة المبهرة ..

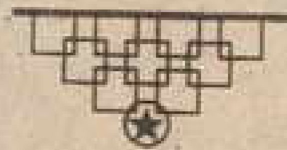
وصاحت (فاطمة) فى ارتياع :

ـ ابتعد .. ابتعد بالله عليك .

ولكن مع السرعة التى تنطلق بها ، والتوتر الشديد فى أعماقها ، لم يكن هناك مفرّ من الاصطدام بذلك الشبح ..

أو بمعنى أدق بـ(فخر) ..

الفارس (فخر الدين) ..



٣ - الماضى والحاضر ..

تعلَّقت عينا الدكتور (سليم فهمى) ، أستاذ علوم الطقس والمناخ ، بقاعدة الشجرة الكبيرة ، وهو يحكّ رأسه بسبَّابته فى حيرة ، غير مبال بالأمطار التى تنهمر عليه ، ثم لم يلبث أن رفع عينيه إلى أعلى ، متطلعًا إلى السماء ، التى تلتمع بالبرق ، كل لحظة وأخرى ، وتنهّد فى عمق ، فى نفس اللحظة التى لحقته فيها زميلته الدكتورة (إلهام) ، وهى تقول :

- ستصاب بنوبة برد ، لو لم تعد إلى كابينة الاختبارات .



لم يبد أنه قد فهم ما تقول ، وهو يشير إلى جذع الشجرة ، قائلًا :

- هل رأيت ما حدث ؟ .. لقد برز ذلك الشخص من الفراغ .. هل رأيت ماذا كان يرتدى ؟

أجابته فى توتر :

- ربما هو مجرَّد ممثل هزلى ، فى فرقة مسرحية شعبية ، أو ...

قاطعها هاتفًا :

- ممثل هزلى ؟!.. أهذا ما تقوله عالمة محترمة مثلك ؟

عقدت حاجبيها ، وتنحنحت ، قبل أن تغمغم فى حذر :

- ألديك تفسير آخر ؟

هتف فى حماس :

- بالطبع .

ثم استدرك ، وهو يرمقها بنظرة جانبية .

- ولكنه لن يروق لك .

لوَّحت بسبَّابتها فى وجهه ، وقالت :

- اسمع .. لو عدت إلى فكرتك الخيالية هذه ، فسوف .

قاطعها فى حماس :

- ألديك أنت تفسير آخر ؟.. لقد كنا نجرى تجربة جديدة ، حول ذلك الجهاز الحربى ، الذى يختزن الصواعق ، ويمكنه استخدامها مرة أخرى ، كسلاح حربى ، وعندما بدأت التجربة ، واجتذبنا أوَّل صاعقة إلى جذع الشجرة ، رأينا جميعًا تلك الهالة العجيبة ، التى لا نعرف لها مثيلًا ، فى علم الأرصاد كله ، وبعدها ظهر ذلك الفارس

القديم فجأة من الفراغ .. ألكل هذا تفسير آخر ، بخلاف ذلك الذى وضعته أنا ؟!

ثم مال نحوها ، وأضاف :

ـ لقد صنعت تجربتنا فجوة زمنية ، والتقطت فارسًا من العصور القديمة .

تطلّعت إليه لحظة ، بنظرة تحمل شيئًا من الذعر ، ثم لم تلبث أن هزّت رأسها فى عنف ، هاتفة .

ـ لا يمكننى تصديق هذا .. إنه غير علمى .

ابتسم قائلًا :

ـ من قال هذا ؟.. إنه الزمن ، الذى تحدّث عنه (اينشتين) ، وأكّد بمعادلاته أنه من الممكن التحرّك عبره أمامًا وخلفًا .. كل ما فى الأمر أننا نحن أوّل من يثبت هذا .

قالت فى حدة :

ـ إننا لم نثبته بعد .. كل هذا مجرّد تخمين واستنتاج .

اعتدل ومسح شعره ، الذى التصق بجبهته ، من شدة المطر ، وقال :

ـ هناك وسيلة واحدة لإثبات هذا .

تطلّعت إليه متسائلة ، فأضاف فى حزم :

ـ أن نعثر عليه .. على فارس العصور القديمة .

وحملت نظرتها هذه المرة ذعرًا أكثر ..

★ ★ ★

كل شىء حول (فخر الدين) كان يثير حيرته وتوتّره ودهشته ..

الأضواء التى تأتى من بعيد ..

تلك المادة السوداء الصلبة ، التى تغطى الأرض ، فى خطوط عريضة ، تمتدّ طويلًا ..

كل شىء ..

ولكن كل هذا لم يمنعه من إتمام مهمته ..

لقد واصل عدوه ، فى الاتجاه الذى انتخبه عقله ، بحثًا عن جواد ، يتم به المهمة ، التى كلّفه إياها السلطان (صلاح الدين) ، والتى قد تعتمد عليها نتيجة المعركة القادمة ا سامله ..

وفجأة رأى أمامه ذلك الوحش ، الذى ينبعث من عينيه ضوء ساطع رهيب ..

وكان الوحش يتحرّك بسرعة مخيفة فى اتجاهه ..

ولم يكن من الممكن أن يتراجع ..

وفى حزم صارم ، توقّف (فخر) فى منتصف الطريق ، يواجه ذلك الوحش بكل البسالة والجرأة ، واستلّ سيفه ، و ...

وصرخت (فاطمة) ، وهى تضغط فرامل السيارة بكل قوتها ، ولكن الإطارات انزلقت فوق الطريق الأسفلتى ، الذى غمرته مياه الأمطار ، ففقدت السيطرة على السيارة ، التى انحرفت فى حدة ، قبل أن تبلغ (فخر) ، وتجاوزت الطريق الأسفلتى ، وقفزت فوق الرمال المحيطة به ، ثم مالت فى شدة ، وانقلبت على جانبها فى عنف ، وراحت تزحف فوق الرمال ، على هذا الوضع لحظات ، قبل أن تتوقّف تمامًا ..

وتجمّد (فخر) فى مكانه لحظة ، وقد استحالت حيرته إلى دهشة بالغة ..

ذلك الوحش ، ذو العينين الساطعتين ، لم يكن سوى صندوق من المعدن ، ينطلق فوق إطارات من مادة عجيبة ..

وفى حذر ، تطلّع (فخر) إلى السيارة المقلوبة ، وإطاراتها التى تدور فى الهواء ، وتساءل فى أعماقه :

ـ أهو سلاح حربى جديدة .. صنعه الصليبيون ؟!

استنكر عقله الفكرة فى بدايتها ، فهو فى (مصر) الآن ، وليس بالقرب من بيت المقدس ، حيث تشتد قوتهم ، وبدا له أنه من المحتم وجود تفسير آخر لما يحدث ، فاقترب من السيارة فى خطوات حذرة ، وسيفه متحفز فى قبضته ، ورأى عبر زجاجها الخلفى جسدا ضئيلا ، يقاوم فى شدة ، ليغادرها ، فاقترب أكثر ، وتطلّع داخل السيارة فى حيرة ..

ووقع بصر (فاطمة) عليه فانتفضت فى البداية ، متصوّرة أنه أحد رجال (خير) ، ثم لم تلبث أن شعرت بالدهشة ، بسبب هذا الزى الذى يرتديه ، إلا أن كل مشاعرها هذه تراجعت بسرعة ، أمام شعورها بالخوف ، وهى تهتف به :

ـ أنت .. لا تقف متطلّعا إلىّ هكذا .. هيا .. عاونى على الخروج من هنا .

بدت على ملامحه الحيرة أكثر ، ولكنه اعتدل ، وقفز فوق

السيارة ، ومدّ يده عبر زجاجها المفتوح ، وانتظر حتى أمسكت يدها بيده ، ثم جذبها عبر النافذة إلى الخارج ..

وامتلأت نفسها بالدهشة ..

إنه قوى ، مفتول العضلات ، جذبها فى بساطة ، كما لو كانت طفلة صغيرة ..

وهو أيضًا وسيم ، بلحيته القصيرة ، وشاربه الرفيع ..

ولكن لماذا يتطلّع إليها بهذه الحيرة ؟..

وما هذا الذى يرتديه ؟

وفى توتر ، نفضت ثوبها ، وقالت :

ـ شكرًا لك .. من حسن حظى أن وجدتك .

ثم تذكّرت فجأة أن وجوده هو سبب ما أصابها ، فصاحت محنقة :

ـ لماذا وقفت فى منتصف الطريق ؟.. هل نسيت قواعد المرور كلها ؟

فوجئت به يسألها :

ـ من أين أنت ؟!

أدهشتها لغته العربية الفصحى ، والأسلوب الذى نطق به سؤاله ، فقالت فى عصبية :

ـ ماذا تعنى ؟!.. إننى مصرية بالطبع .. ولكن ماذا عنك ؟.. أأنت سعودى أم خليجى أم ..؟

قاطعها فى توتر :

ـ عجبًا !.. كيف تكونين مصرية ، ولست أفهم حديثك جيدًا ؟.. بأية لغة تتحدثين بالله عليك ؟

قالت فى دهشة :

ـ بالعربية .

هتف محنقًا :

ـ أية عربية ؟.. أنا مصرى أبا عن جد ، ولكن لغتك هذه عجيبة ، حتى أننى بالكاد أفهمك .. إنها مزيج من الفارسية والتركية والعربية ، و ..

قاطعته مستنكرة :

ـ أنت مصرى ؟!.. هل تحاول إقناعى بهذا ؟

أشار إلى صدره فى حزم ، قائلا :

ـ بالطبع .. أنا مصرى ، وأفخر بهذا .

تأملت وجهه وثيابه ، والسيف الذى يمسك به ، ثم قالت ساخرة :

ـ من أى عصر أنت إذن أيها المصرى .؟ أمن عصر (محمد على)(*) ، أم (صلاح الدين الأيوبى) ؟

التقى حاجباه فى توتر شديد ، وهو يقول :

ـ من (محمد على) هذا ؟ .. ولماذا أشرت إلى عصر السلطان

(*) (محمد على) (١٧٦٩ ـ ١٨٤٩ م) : والى (مصر) ، ولد بـ (قولة) ، وأرسل ضمن حملة لإخراج الفرنسيين من (مصر) ، ثم اختاره المصريون واليًا عليهم عام ١٨٠٥ م ، بعد أن ضاقوا بحكم (خورشيد باشا) ، وبعدها تخلص من المماليك فى مذبحة القلعة عام ١٨٦١ م ، ونال حكم (مصر) ، له ولذريته من بعده ، حتى ثورة يوليو .

(صلاح الدين الأيوبى) باعتباره عصرًا مضى .. هل أصاب السلطان مكروه ؟

حدّقت فى وجهه بذهول هذه المرة ، وهى تغمغم :

ـ أصابه ماذا ؟.. ألم تستذكر كتب التاريخ جيدًا ؟!.. (صلاح الدين) هذا ..

قاطعها فجأة ضوء ساطع ، أتى عبر الطريق ، فالتفتت إليه فى ذعر ، وتطلّع إليه (فخر) أيضًا ، وهو يقول فى توتر :

ـ صندوق ساطع آخر .

أدركت على الفور أنهم رجال (خيرى) ، فصاحت به فى ارتياع:

ـ انقذنى .. أرجوك .. إنهم هنا لقتلى .

التقى حاجباه ، وهو يتطلّع إليها فى دهشة ، قائلًا :

ـ قتلك أنت ؟!.. هذا مستحيل !.. ما من رجل يقتل امرأة ، حتى ولو ..

صاحت به مقاطعة :

ـ إنهم سيقتلوننى .. أنقذنى .. أرجوك .

فجّرت صيحتها روح الفارس فى أعماقه ، فاعتدل فى حزم ، ورفع سيفه قائلًا :

ـ اطمئننى يا فتاة .. لن يمسّ أحد ركاب هذا الصندوق الساطع شعرة واحدة منك ، إلا على جثتى ..

ألقت نظرة ملتاعة على السيارة ، التى تقترب فى سرعة ، وهتفت :

ـ بسيف ؟!.. هل تنوى مواجهة أربعة رجال ، بسيف واحد .. إنهم يحملون المسدسات .

سألها فى حيرة :

ـ لماذا ؟!

ضمَّت قبضتها ، ورفعت سبَّابتها وإبهامها ، وهى تقول فى عصبية :

ـ المسدسات .. بانج .. بانج .. تلك الأسلحة الصغيرة ، التى تحوى الرصاصات ، وتقتل بتصويبها من بعيد .. ألا تعرفها .. إنهم سيقتلونك قبل أن تبلغ موضعهم بعشرة أمتار على الأقل .

لم يفهم ما الذى تعنيه ، إلا أن توتره تضاعف ، وهو يقول :

ـ تقصدين شيئًا مثل (المنجنيق)(*) .

هتفت فى حدة :

ـ تمامًا ، ولكنه أكثر خطورة ، فهو صغير الحجم ، يمكن الإمساك به فى قبضة اليد ، ورصاصاته قاتلة بلا رحمة .. هل تذكرت الآن ؟

قالتها والسيارة تتوقف على قيد أمتار منهما ، فأضافت فى انهيار :

ـ وعلى أية حال ، لم تعد هناك فائدة .. أية فائدة .

(*) المنجنيق : سلاح قديم ، عبارة عن مقلاع ضخم ، مثبت من أحد طرفيه ، ويشده حبل من الطرف الآخر ، كانت توضع به أحجار ضخمة ، ثم يفصل الحبل فجأة ، فيقذف المقلاع الحجر بعيدًا ، وهو الصورة البدائية للمدافع .

وفى نفس اللحظة غادر الرجال الأربعة السيارة ، وصوَّب كبيرهم مسدسه إليها ، قائلًا فى سخرية :

ـ إذن فهى نهاية الطريق يا (فاطمة) .

ولكن (فخر) أزاح (فاطمة) عن مسار الرصاصة ، ودفعها خلفه ليحميها بجسده ، وهو يشهر سيفه فى وجه الرجل ، قائلًا فى صرامة :

ـ إنها تحت حمايتى ، ولابد من مبارزتى ، لو أردت استعادتها .

ابتسم الرجال الأربعة فى سخرية ، وقال الذى يصوِّب مسدسه :

ـ ما هذا بالضبط ؟.. مهرج سقط من كتاب التاريخ ؟!.. أين عثرت على هذا الشىء يا (فاطمة) ؟

بدا له صوت (فخر) حازمًا صارمًا ، وهو يقول :

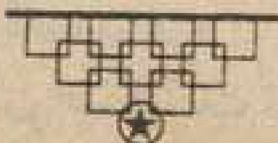
ـ ما قولك ؟.. هل تبارزنى ؟

تطلع إليه الرجل فى استهتار ساخر ، ثم جذب إبرة مسدسه ، وقال :

ـ فليكن يا خريج مستشفى الأمراض العقلية .. هيا .. سيبارز كل منا بسلاحه .

وصوَّب مسدسه إلى (فخر) ، الذى يبعد أربعة أمتار فحسب ، و ...

وأطلق النار .



٤ ـ صراع العصــور ..

« .. انظر ما الذى عثرنا عليه .. » .

التفت الدكتور (سليم) إلى مساعده ، الذى يهرع إليه ، والدهشة تملأ صوته وملامحه ، وتطلّع فى اهتمام إلى ذلك الشىء الذى يحمله فى يده ، فى حين قالت (إلهام) ، وهى تلتقط ذلك الشىء من يد المساعد فى لهفة :

ـ ما هذا بالضبط ؟

ثم اتسعت عيناها فى دهشة ، وهى تحدّق فيما بدا لها أشبه ببقايا مسدس قديم ، تآكل معظمه بفعل الزمن والصدأ ، وهتفت :

ـ أين عثرتم عليه ؟

أجابها الرجل فى انفعال :

ـ عند قاعدة الشجرة .. لقد أردنا فحص التوصيلات والأسلاك ، والبحث عن أية مواد غريبة ، قد يكون لها تأثير سلبى على أجهزتنا ، فعثرنا عليه ..

التقط الدكتور (سليم) بقايا المسدس الصدئ من يد (إلهام) ، وفحصه فى عناية ، قبل أن يقول :

ـ صحيح أننى لست عالم آثار ، ولكن شكل هذا المسدس يوحى بأنه مدفون عند قاعدة الشجرة ، منذ خمسة قرون على الأقل .

ابتسمت (إلهام) ، وقالت ساخرة :

ـ عجبًا !.. كنت أظـن المسدسـات اختراع حديث ، يعود إلى ما بعد هذا بكثير .

هزّ كتفيه ، وقال :

ـ من يدرى ؟.. لم يعد للزمن قيمة ، عند جذع الشجرة .

والتفت إلى الشجرة الكبيرة ، مضيفًا فى خفوت :

ـ لقد فتحنا فجوة عبر الزمن ، والله (سبحانه وتعالى) وحده يعلم ، ما الذى يمكن أن يأتى عبرها ..

ولم تجد هى ما تقول ..

★ ★ ★

انتفض جسد (فاطمة) فى ارتياع ، عندما انطلقت الرصاصة ، ثم اتسعت عيناها فى ذهول شديد ، على الرغم من أنها رأت بعينيها ما حدث ، فى الثانية التى سبقت انطلاقها ..

لقد تحرّك (فخر) فجأة ، ووثب إلى الأمام ، وضرب يد الرجل بسيفه ، فأصاب أصابعه ، وبترها مع المسدس الذى تمسك به ، والذى انطلقت منه الرصاصة فى الهواء ، وأصابت صخرة قريبة ، وكسرتها إلى نصفين ..

وصرخ الرجل فى ألم ورعب ، وتراجع رجاله الثلاثة فى حركة غريزية ، أملاها الخوف وعامل المفاجأة ، فى حين قفز (فخر) إلى الخلف بدوره ، وجذب (فاطمة) من يدها ، وهتف :

ـ هيا بنا .

لم يكن قد استوعب تمامًا ما أصابه ، ولم يكن قد أدرك طبيعة العصر ، الذى انتقل إليه عبر الزمن ، ولكنه رأى الرصاصة تصيب

الصخرة الصغيرة ، وتفعل بها ما فعلته ، وفهم قوة تلك الأسلحة الصغيرة ..

وأدرك ضرورة الفرار ..

وفى استسلام تام ، تركته (فاطمة) يجذبها ، وهو يعدو معها نحو منطقة قريبة ، تحوى عددًا من المساكن الحديثة ، التى لم ينته تشييدها بعد ، فى حين كان الرجل المصاب يصرخ :

ـ الحقو بهما .. اقتلوهما .. لقد بتر يدى .. إننى أحتاج إلى إسعاف عاجل .. النجدة ..

ومع صرخته ، استيقظ زملاؤه الثلاثة من ذهولهم وخوفهم ، واستلّ كل منهم مسدسه ، وراحوا يطلقون النار على (فخر) و(فاطمة) ، اللذين ابتلعهما الظلام وسط العاصفة والمطر ..

ووصل (فخر) و(فاطمة) إلى المساكن الحديثة ، وتطلّع هو إليها فى رهبة ، وهو يقول :

ـ متى بنوا هذه القلاع ؟.. لم أشاهدها عند قدومى .

تطلّعت إليه فى دهشة شديدة ، وغمغمت :

ـ القلاع ؟!

ولكنه جذبها مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ دعينا من هذا الآن .. فلنختبئ من حاملى أسلحة النيران هؤلاء ، ثم نناقش هذا فيما بعد .

لهثت قائلة :

ـ لم أعد أستطيع .. قلبى يكاد يتمزّق من الجهد ، و ...



شهقت عندما حملها فجأة بين ذراعيه ، وهتفت :

ـ ماذا تفعل ؟

أجابها فى حزم ، وهو يتجه نحو أقرب البنايات إليه :

ـ لقد أصابك التعب .. أليس كذلك ؟

همَّت بالاعتراض ، ثم لم تلبث أن استكانت له تمامًا ، وتركته يحملها كطفله صغيرة ، وهو يصعد فى درجات السلالم الحديثة ، إلى الطابق العلوى من البناية ..

كان قوى البنية ، حازمًا ، صارمًا ، من طراز لم تلتق بمثله قط من قبل ..

وكان فارسًا ..

فارسًا بمعنى الكلمة ..

وعلى الرغم من الظروف التى يمرّان بها ، خفق قلبها بين ضلوعها ، وهو يفرد حرملته على أرض الطابق العلوى ، ويرقدها فوقها فى رفق ، قائلًا :

ـ استريحى هنا ، حتى ينتهى كل شىء .

غمغمت ، وقد اعتراها الخجل منه لأوَّل مرة :

ـ أشكرك .

اطمئن إلى رقودها فى ارتياح ، ثم وقف يستلّ سيفه مرة أخرى ، فقالت فى قلق :

ـ ماذا تفعل ؟

أجابها فى حزم :

ـ ربما يصل إليك أحدهم .

خفق قلبها مرة أخرى ، وهى تقول فى خفوت :

ـ هل تحاول حمايتى ؟

أجاب فى قوة :

ـ بالتأكيد .

رقص قلبها طربا لعبارته ، وخيِّل إليها أنها أميرة من عصر الفرسان ، التقت بفارس أحلامها ، الذى يحميها من اللصوص والأشرار ..

إنها تحلم دائما بالعيش فى زمن الفرسانٌ ..

تحلم فحسب ..

وعلى ضوء البرق ، الذى دام لجزء من الثانية ، تأمَّلت ملامحه الوسيمة ، قبل أن تهمس فى نشوة وخفوت .

ـ من أين أتيت ؟

أجاب وهو يراقب الباب فى حذر :

ـ من جيش السلطان المظفر (صلاح الدين الأيوبى) .. هناك مهمة بالغة الخطورة ، أقوم بها من أجل ..

بتر عبارته بغتة ، وقال فى صرامة :

ـ مجرَّد مهمة ، لا شأن لأحد بها .

بدا لها حديثة أشبه بهذيان مجنون ، إلا أنه لم يبد لها أبدا أشبه بالمجانين ، فسألته :

ـ وما اسمك ؟

أجاب بسرعة :

- (فخر الدين الأيوبى) .. أنا قريب للسلطان .

تنهدت وقالت :

- فليكن .. لن أناقشك فيما تقول ، ولكن لماذا تخليت عن مهمتك ، وسعيت لإنقاذى ؟

أجاب فى صرامة :

- أنت امرأة .. وما من فارس يتخلى عن امرأة استنجدت به .

دغدغت العبارة حواسها مرة أخرى ، فارتسمت على شفتيها ابتسامة عريضة ، وقالت :

- بالطبع .. ما من فارس يفعل هذا .

رأته يتحسس الجدران فى حيرة ، فسألته :

- ما الذى يقلقك ؟

أجاب متوترًا :

- كل شىء يبدو لى عجيبًا ، منذ أصابتنى الصاعقة ، عند جذع الشجرة الكبيرة .. الطرق ، والأضواء ، وتلك المادة العجيبة ، التى شيدوا منها هذه القلاع .

قالت فى دهشة :

- مادة عجيبة ؟!.. إنها الأسمنت .

ردد فى حيرة :

- أسمنت ؟!.. أهى مادة جديدة ، اخترعها (الدمشقى) ؟

جلست هاتفة :

- (الدمشقى) ؟!.. نعم .. لقد رأيت الفيلم .. أليس هو الذى اخترع المادة ، التى أحرقت الأبراج .

حدق فى وجهها بدهشة بالغة ، وهو يقول :

- الفيلم ؟!.. ما الذى يعنيه هذا ؟

تنهدت وهى تربت على كفه ، قائلة :

- لا عليك .. إنها مجرد مصطلحات عجيبة .

لم تكن ترغب فى مناقشته طويلًا ، على الرغم من غرابة ما يقول ، فاكتفت بالاسترخاء فوق حرملته ، وأغلقت عينيها ، وهى تحلم مرة أخرى بالعيش فى زمن الفرسان ، حتى سألها :

- لماذا يطاردك هؤلاء الرجال ، ويسعون لقتلك ؟

قالت فى توتر ، عاودها مع سؤاله :

- إننى أحمل دليل إدانة زعيمهم .

التفت إليها متسائلًا ، فاستطردت :

- إننى أعمل كسكرتيرة فى مكتب (خيرى الجمال) .

سألها فى حيرة :

- وما الذى تعنيه كلمة (سكرتيرة) ؟.. ومن هو (خيرى الجمال) هذا ؟..

تنهدت قائلة :

- إنه تاجر كبير ، وكنت أنا مساعدته ، ثم كشفت فيما بعد أنه واحد من كبار تجار المخدرات .

سألها :

ـ وما هى هذه المخدرات ؟

أجابته :

ـ هى مواد سامة ، تذهب بالعقول ، وتفسد الأجساد ، والقانون يمنع الاتجار فيها ، وتعاطيها ، أو حتى حملها ..

ثم تنهدت مستطردة :

ـ المهم أننى كشفت هذا الأمر بعد فوات الأوان ، وبعد أن ورّطنى (خيرى) فى عملية تسليم مخدرات ، دون أن أدرى ، والتقط لى فى أثناء ذلك بعض الصور ، والتسجيلات ، التى تكفى لإدانتى ، وإلقائى فى السجن لربع قرن من الزمان .

هزّ رأسه ، وهو يغمغم :

ـ كل هذا يبدو لى عجيبًا ، ولست أستوعب معظمه .

ولكنها تابعت ، كما لو أنها لم تسمع تعقيبه :

ـ وحاول (خيرى) دفعى إلى مشاركتهم جريمتهم ، بعد تورّطى فى الأمر ، على الرغم منى ، إلا أننى رفضت هذا بشدة ، وسرقت بعض الأوراق والمستندات ، التى تدينه ، وأردت إبلاغ الشرطة ، ولكنّه أرسل رجاله خلفى ، فألقوا القبض علىّ ، واستعادوا الوثائق ، وكادوا يقتلوننى فى مكتبه ، لولا أن نجحت فى الفرار ، واستعدت الوثائق مرة أخرى .. وها هى ذى .

قالتها وأخرجت المظروف المنتفخ من جيب ثوبها ، ولوّحت به فى وجه (فخر) ، الذى تطلّع إلى المظروف فى دهشة ، ومدّ يده ليمسكه ، فى نفس اللحظة التى صدرت فيها قرقعة واضحة ، فى

الطابق السفلى للبناية ، فاعتدل ليشهر سيفه فى حزم وتحفّز ، وهو يقول :

ـ لقد وصلوا .

كان رجال (خيرى) الثلاثة قد بلغوا البناية بالفعل ، بعد وصول سيارة الإسعاف ، التى نقلت زميلهم للمستشفى ، فى محاولة لإعادة أصابعه المبتورة ، والغضب يملأ نفوسهم لما أصابه ، وقال أحدهم لزميله ، وهو يصعد فى درجات السلم بحذر :

ـ احترسوا من سيف هذا المهرّج .. لقد رأيتم كيف يستخدمه .. اقتلوه قبل أن يشهره فى وجوهنا .

واصل الثلاثة صعودهم ، حتى بلغوا الطابق العلوى ، فتقدّم أحدهم إليه ، وهو يقول :

ـ لو لم نعثر عليه ، سنواصل بحثنا فى البنايات المجاورة ، و ...

وفجأة ، وقبل أن يتمّ عبارته ، ظهر (فخر) أمامه ، وهو يهتف :

ـ الموت للمجرمين .

وغاص سيفه فى قلب الرجل ، الذى أطلق شهقة قوية ، وجحظت عيناه فى شدة ، وسقط مسدسه بين قدميه ، قبل أن ينتزع (فخر) سيفه من صدره ، ثم هوى فوق درجات السلم ، وزميلاه يصرخان :

ـ ها هو ذا .

وانطلقت رصاصات مسدسيهما نحو فتحة الباب ، فى نفس اللحظة التى اختفى فيها (فخر) بالداخل ، ولكنهما واصلا إطلاق

النار بعض الوقت ، قبل أن يلتفت أحدهما إلى زميله الصريع ، ويهتف فى هلع :

ـ لقد قتل (توفيق) .. ذلك المهرّج الوغد طعنه بسيفه .

هتف الثانى ، وهو يندفع نحو الطابق العلوى :

ـ سأقتله .

أمسك به زميله ، وهو يقول فى حزم :

ـ كلا يا رجـل .. لا تحـاول .. إنـه يستخدم السيف بمهـارة حقيقية ، وسيقتلك فور دخولك .. كلّا .. هذا ليس صحيحًا ..

ثم أشار إلى صدره ، مستطردًا :

ـ عندى خطة أفضل .

سأله زميله :

ـ ما هى ؟

أجابه فى حماس :

ـ اذهب وأحضر وعـاء البنزين الاحتياطـى مـن السيـارة ، وصندوق زجاجات المياه الغازية الفارغ ، وبعض قطع القماش .

برقت عينا الرجل ، وهو يقول :

ـ ستصنع قنابل المولوتوف .. أليس كذلك ؟

أجابه زميله :

ـ نعم يا رجل .. بعض البنزين فى زجاجـة المياه الغازيـة ، قطعة من القماش فى فوهتها ، وعود ثقاب .. تصبح لديك

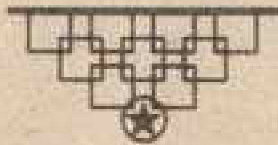
قنبلـة .. هيـا .. أحضر هـذه الأشيـاء بسرعـة ، وسأمنعهمـا برصاصاتى من مغادرة المكان .

وارتسمت الشراسة فى ملامحه ، وهو يضيف :

ـ سنشويهما حيين .

وامتزجت شراشته بابتسامة ..

ابتسامة وحشية .



٥ ـ النيران ..

امتدت أضواء مصباحى سيارة الدكتور (سليم) تشقّ ظلام المنطقة ، وتتحدّى الأمطار والرياح ، وهو يقول لزميلته (إلهام) فى حماس :

ـ سنعثر عليه بإذن الله ، فقد اتخذ هذا الطريق ، ولن يبتعد كثيرًا بالتأكيد .

سألته متبرّمة :

ـ ولماذا بالتأكيد ؟

أجاب فى سرعة :

ـ ضعى نفسك فى موضعه .. كنت فى عصرك ، ثم وجدت نفسك فجأة فى زمن آخر ، يفوقه بعدة مئات من السنين ، فهل تتحركين بسرعة ، أم يثير كل شىء حيرتك ودهشتك ، فتتقدمين خطوة خطوةً ؟

هزت كتفيها ، قائلة :

ـ لست أدرى ، فأنا أنتمى إلى زمن واحد مسكين .

رمقها بنظرة جانبية ، وهو يقول :

ـ وعدت مرة أخرى للسخرية !

هتفت محنقة :

ـ لا يمكننى هضم فكرتك هذه .

قال مبتسمًا :

ـ تناولى عقارًا مهضمًا .

هتفت به :

ـ هل تمزح ؟

قال ضاحكًا :

ـ أحاول التخفيف من توترك بعض الشىء .

رأيا سيارة الإسعاف تقترب منهما ، وهى تطلق بوقها المميّز ، ثم تتجاوزهما بسرعة ، فقطب هو حاجبيه ، وقال :

ـ هذا لا يروق لى .

سألته فى تردُّد :

ـ لماذا ؟.. ربما هو حادث سير عادى .

غمغم :

ـ ربّما .

أشارت هى إلى سيارة (فاطمة) المقلوبة ، وقالت :

ـ أرأيت !.. إنها حادثة سير .

ألقى نظرة علىَ السيارة بدوره ، وواصل طريقه .. ولكن شيئًا ما فى أعماقه كان يشعر بقلق .. قلق مبهم عجيب ..

* * *

ارتجفت (فاطمة) رعبًا ، عندما سمعت ما ردّده الرجل ، وهتفت وهى تتشبّث بـ(فخر) فى ارتياع ، وتلتقط المسدس الذى سقط من يد الرجل بيدها الأخرى :

ـ هل سمعت ما قاله ؟.. إنه سيشوينا أحياء .

لم يبد الخوف عليه ، وهو يسألها فى اهتمام :

ـ ما هذا (المولوتوف) ، الذى تحدث عنه ؟

أجابته مرتعدة :

ـ إنه كما سمعت تمامًا .. زجاجة تمتلئ بالبنزين ، وتُغلق فوهتها بقطعة من القماش ، مبلَّلة بالبنزين أيضًا ، وعند إشعال قطعة القماش يشتعل البنزين ، وتنفجر الزجاجة ، وتنتشر منها النيران على مساحة واسعة .

قال فى جدية :

ـ إذن فهذا البنزين مادة تشتعل .

هتفت :

ـ نعم .. هو كذلك .. وقنبلة (مولوتوف) واحدة تنفجر هنا ، تكفى لإشعال النيران فى المبنى كله .. هل فهمت ؟

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم .. لقد فهمت .

ثم عاونها على النهوض ، مستطردًا :

ـ لم أكن أحب أن أضايقك ، ولكننى أحتاج إلى هذه الحرملة .

تركته يستعيد حرمبته ، ويتجه إلى النافذة ، ويتطلَّع منها إلى أسفل ، وسألته :

ـ ماذا تفعل ؟

أجابها فى هدوء :

ـ أبحث عن وسيلة لتفادى حفل الشواء هذا .



ثم التفت إليها ، وأحاط وسطها بطرف الحرملة ، مستطردًا :

ـ عفوًا .

سألته فى قلق شديد :

ـ ماذا تفعل ؟

أجاب فى حزم :

ـ سأعاونك على الهبوط إلى النافذة السفلى .

صاحت فى هلع :

ـ ماذا ؟.. هل تتصوَّر أننى ..

بترت عبارتها بشهقة جادة ، عندما حملها بغتة وأجلسها على طرف النافذة ، قائلًا :

ـ هل تفضلين الشواء ؟

ارتجفت وهى تجلس على هذا الارتفاع ، وقالت :

ـ سأسقط يا (فخر) .

قال فى حزم :

ـ لا تقلقى .. سأعاونك بقدر استطاعتى .

دفعها فى رفق . حتى تدلت من النافذة ، وهو يمسك طرف الحرملة الآخر فى قوة ، وقال :

ـ ستهبطين فى بطء ، وعندما تبلغين إطار النافذة السفلى ، تشبثى به ، وادفعى جسدك داخل الطابق أسفلنا ، وهناك ستجدين الأمان .

شعرت فجأة بالأمان ، مع كلماته الواثقة الهادئة ، على الرغم من دقة الموقف ، وتركته يدليها فى بطء ، نحو النافذة السفلى ، فدفعت قدميها عبرها ، وتأرجحت ، ثم أفلت هو الحرملة ، فاندفعت داخل الحجرة ، التى تحوى النافذة ، وسقطت على أرضها .

كانت تشعر بالألم من وقع الارتطام ، ولكنها كتمت شهقة الألم فى أعماقها ، خشية أن يسمعها الرجل ، الذى يقف خارج المكان ، فى ذلك الطابق بالذات ، وسمعته يقول لزميله :

ـ عظيم .. ها هى ذى أولى قنابل (المولوتوف) معدّة للعمل .. قل وداعًا للمهرّج وصاحبته .

ارتجفت فى قوة ، وهى تتخيّل (فخر) فى الطابق العلوى ، وقنبلة (المولوتوف) تنفجر بالقرب منه ، والوقود المشتعل يمسك بثيابه ، وجسده ، و ...

وأغلقت عينيها فى ارتياع ، غير قادرة على تصوُّر الفكرة ..

وفى نفس اللحظة دوى الانفجار ..

انفجار قنبلة (المولوتوف) ..

★ ★ ★

بلغ الانفجار مسامع الدكتور (سليم) ، فى نفس اللحظة التى استدار فيها عائدًا ، بعد أن يئس من العثور على الفارس ، الذى اجتاز أمام عينيه فجوة الزمن ، فانتفض جسده وهو يهتف :

ـ ما هذا ؟

أدارت (إلهام) عينيها إلى تلك البنايات الحديثة ، التى اندلعت النيران من طابق إحداها العلوى ، وقالت :

ـ ربما انفجرت اسطوانة غاز أو ...

قاطعها الدكتور (سليم) :

ـ ولكنها مبان غير مأهولة بعد .

هزّت رأسها ، قائلة :

ـ لست أدرى .. ولكن ما شأننا بهذا .

قال وهو يتجه فى حزم نحو المبانى الحديثة :

ـ شىء ما فى أعماقى يقول إن لهذا شأنًا بنا .

قالت فى حدة :

ـ أهو استنتاج سخيف آخر ؟

قال فى صرامة :

ـ نعم .. هو كذلك .

وانطلق نحو موقع الانفجار ..

★ ★ ★

دوى الانفجار فى الطابق العلوى ..

وفى قلب (فاطمة) ..

لقد تصورت أن الانفجار أطاح بـ(فخر الدين) ..

بالفارس ..

ولكنها شعرت فجأة بتلك الحركة خارج النافذة ، فاندفعت إليها ، وتطلعت إلى أعلى ، ثم شهقت فى شدة ..

كانت النيران تندلع من نافذة الطابق العلوى ، والأمطار تخترقها فى مشهد عجيب ، ولكن (فخر) يتدلى من إطار النافذة ، ويهتف بها .

ـ ابتعدى .

ابتعدت عن النافذة بحركة غريزية ، ورأته يهوى أمامها من أعلى ، ثم يتشبث بإطار نافذتها فى حركة سريعة قوية ، فاندفعت مرة أخرى نحو النافذة لتعاونه على الصعود ، وهى تهتف :

ـ لقد نجوت .. حمدًا لله يا (فخر الدين) .. لقد نجوت .

استجمع قوته ، وصعد إلى إطار النافذة ، ثم وثب داخل الحجرة ، وهو يقول :

ـ الأمور تسير على وجه أعنف مما اعتدته بكثير ..

ثم نفض ثيابه ، وعاد يستل سيفه من غمده ، مستطردًا :

ـ يبدو لى وكأننى فى زمن آخر .

هتفت به فى حرارة :

ـ أنت كذلك يا(فخر الدين) .. أنت فارس فى زمن يفتقر إلى الفرسان .

جاء من خلفها صوت غاضب شرس ، يقول :

ـ وسيرحل إلى عالم آخر يا (فاطمة) .

التفتت بسرعة إلى مصدر الصوت ، وأطلقت صرخة ذعر مكتومة ، عندما رأت رجلى (خيرى) أمامها ، وكلاهما يحمل مسدسه ..

ومع صرختها انطلق (فخر) ..

انطلق يضرب مسدس أحد الرجلين بسيفه ، ثم يطعنه هاتفًا :

ـ ومن يدرى أينا سيرحل إلى العالم الآخر يافتى ؟

ولكن الرجل الآخر تراجع فى حركة حادة ، وأطلق رصاص مسدسه على سيف (فخر) ..

وتحطم السيف ..

تحطم وسقط من يد (فخر) ، الذى لم يعد يقبض سوى على مقبض السيف فحسب ، وهو كل ما تبقى منه ..

وألقى الرجل نظرة على زميله ، الذى جندله سيف (فخر) ، فى آخر قتال له ، ثم أمسك مسدسه بقبضتيه ، وهو يصوبه إلى (فخر) ، هاتفًا فى غضب :

ـ لقد خضت قتالك الأخير أيها المهرج ، والآن وداعًا ..

ودوت الرصاصة القاتلة ..

★ ★ ★

فجأة تذكرت (فاطمة) أنها تحمل مسدسًا ..

تذكرت هذا ، وهى ترى آخر رجال (خيرى) ، مصوبًا مسدسه إلى (فخر الدين) ، الذى فقد سيفه ..

وفى جزء من الثانية ، ودون أن تدرى كيف فعلت هذا ، انتزعت (فاطمة) المسدس من جيبها ، وأطلقته ..

ودوت الرصاصة القاتلة ..

دوت من مسدسها ، قبل أن يضغط الرجل زناد مسدسه ، وانطلقت الرصاصة لتخترق رأسه ، فى منتصف جبهته تمامًا ، فاتسعت عيناه لحظة ، ثم هوى جثة هامدة ، عند قدمى (فخر) ، الذى قال فى توتر :

ـ هذه الأشياء الصغيرة تقتل فى عنف .

أعادت المسدس إلى جيبها ، وهى تقول مرتجفة :

ـ لم يكن أمامى سوى هذا .. كان سيقتلك .

أحاط كتفها بذراعه ، وقال :

ـ نعم .. لم يكن أمامه سوى هذا .

وقادها فى رفق إلى الخارج ، وهى ترتجف من فرط الانفعال ، وهبطا معًا فى درجات السلم ، حتى بلغا قاعدة المبنى ، وغادراه فى سرعة ..

وفجأة سطعت الأضواء فى وجهيهما ، مع صوت الدكتور (سليم) ، وهو يهتف فى انفعال :

ـ ها هوذا .

تحفز (فخر) للدفاع عن (فاطمة) ، التى أمسكت المسدس داخل جيبها فى توتر ، لولا أن قال الدكتور (سليم) فى حماس :

ـ رويدك يا فتى .. اهدأ .. إننا هنا لمساعدتك .. صدقنى .

نقل (فخر) عينيه ، بين وجهى الدكتور (سليم) و (إلهام) ، قبل أن يقول فى حذر :

ـ من أنتما ؟

أجابه الدكتور (سليم) :

ـ إننا بعض الذين رأيتهم ، عند عبورك فجوة الزمن إلى عصرنا .. هل تذكر هذا ؟

هتفت (فاطمة) فى ذهول :

ـ فجوة الزمن ؟!.. إذن فأنت بالفعل من عصر آخر .

ارتبك (فخر) ، وهو يقول :

ـ لست .. لست أفهم شيئًا .

قال الدكتور (سليم) :

ـ سأشرح لك كل شىء يا فتى .. ثق بى .. أرجوك .

انتفض (فخر) ، وقال :

ـ ولماذا أثق بك ؟.. من أدرانى أن كل هذا ليس سوى خدعة ، صنعها رجال (ريتشارد قلب الأسد) فى إحكام ، لإقناعى بكشف ما لدى ، والحصول على الرسالة ؟

أجابته (فاطمة) فى حرارة :

ـ أنا يا (فخر الدين) .

التفت إليها فى دهشة ، وقال :

ـ أنت ؟!

أجابته بسرعة :

ـ نعم يا (فخر الدين) .. صدقنى ، لو أنك تثق بى ، وبإخلاص فى معاونتك .. صدقنى يا (فخر الدين) ، وامنح ثقتك لهما .

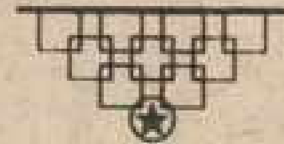
تردد (فخر) لحظات ، وهو يمسك الرسالة داخل ثيابه فى قوة ، ثم قال :

ـ حسن .. سأمنحكما ثقتى .. من المؤكد أن لديكما تفسيرًا لكل هذا .

ابتسم الدكتور (سليم) فى ارتياح ، وقال :

ـ صدقنى يا فتى .. لن تندم أبدًا .. والآن هيا بنا ، فلنبتعد عن هذا المكان ، قبل وصول رجال الشرطة والإطفاء .. هيا بنا .

وبعد لحظات انطلقت بهم السيارة ، عائدة إلى حيث الفجوة .. فجوة الزمن .



٦ ـ معًا ..

تصارع الحزن مع السعادة فى أعماق (فاطمة) ، وهى تراقب (فخر الدين) ، الذى يستمع إلى الدكتور (سليم) فى اهتمام شديد ، داخل الكابينة الزجاجية ..

الحزن لأن (فخر) لا ينتمى بالفعل إلى عالمها ..

والسعادة لأنها عثرت أخيرًا على الفارس ..

الفارس الذى تحلم به منذ صباها ..

ولم يستوعب (فخر) شيئًا من حديث الدكتور (سليم) ، سوى أنه الآن فى زمن آخر ، لا ينتمى فى الواقع إلى زمنه ، فقال بعد انتهاء الحديث :

ـ ولكن ماذا عن المهمة ؟.. إننى أحمل رسالة شديدة الأهمية والخطورة ، لابد أن تصل إلى السلطان ، قبل المعركة الفاصلة .

سألته الدكتورة (إلهام) :

ـ وما فحوى هذه الرسالة ؟

هز رأسه نفيًا ، وقال :

ـ لست أدرى .. ليس من حقى الاطلاع عليها ، ولكننى وعدت السلطان ببذل حياتى نفسها ، لو اقتضى الأمر ، لتصل الرسالة إليه ، حتى يمكنه تحديد موقع المعركة الفاصلة ، ومعرفة أين يمكن أن ينتصر .. فى (حطين) أم (طبرية) .

أجابته (فاطمة) :

ـ كتب التاريخ تقول : إنه حارب فى (حطين) ، وانتصر .

لوَّح بذراعه ، هاتفًا :

ـ هذا لو وصلته الرسالة .

قالت فى لهجة أقرب إلى الضراعة :

ـ لقد حارب (صلاح الدين) ، وانتصر ، ولم تعد لمهمتك أهمية .

هتف فى صرامة :

ـ لقد وعدت .

اعتدل الدكتور (سليم) فى مقعده ، وقال :

ـ إذن فأنت تريد العودة إلى عصرك .. أليس كذلك ؟

التفت إليه (فخر) ، قائلا :

ـ نعم .. لو أن هذا ممكن .

ابتسم الدكتور (سليم) ، وقال :

ـ أعتقد أن هذا ممكن .

خفق قلب (فاطمة) فى هلع ، فى حين هتفت الدكتورة (إلهام) :

ـ أى قول هذا يادكتور (سليم) ؟.. أتظننا اخترعنا آلة الزمن ، بسبب حادث عرضى كهذا ؟

أجابها فى هدوء ، وهو يشير إلى السماء ، التى تلتمع بالبرق :

ـ الظروف لم تتغيَّر بعد .. وما تزال تلك العاصفة النادرة ، ذات التأثير المغناطيسى مستمرة ، وأظننا نستطيع فتح فجوة الزمن مرة أخرى ، لو كرَّرنا التجربة ، قبل انتهاء العاصفة .

لوَّحت بذراعها ، هاتفة :

ـ لا شىء يؤكِّد هذا .

هزَّ كتفيه ، قائلًا :

ـ ولا شىء ينفيه .

أما (فخر) ، فأمسك يده ، قائلًا فى حزم :

ـ لو أن العودة ممكنة ، فأعدنى إذن إلى زمنى .. هناك مهمة تحتاج إلى إتمامها .

نهض من مقعده ، قائلًا فى حزم :

ـ فليكن يا فتى .. سنعيد التجربة ، ونعمل على إعادتك إلى زمنك .

وهوى قلب (فاطمة) بين ضلوعها ..

★ ★ ★

« كل شىء معد لتكرار التجربة .. » .

قالها مساعدا الدكتور (سليم) ، وهما يعدان أجهزتهما ، ويراجعان كل الحسابات ، التى ارتسمت على شاشة الكمبيوتر ، فتشبثت (فاطمة) بـ(فخر) ، وقالت فى ضراعة :

ـ ابق يا (فخر الدين) .. أرجوك .

تطلَّع إليها فى أسى ، وقال :

ـ لا يمكنك أن تتصوَّرى كم أتمنى البقاء إلى جوارك للأبد .. ولكن لابد من إكمال المهمة .

صاحت به :

ـ لم تعد هناك أهمية لمهمتك .. ألا تفهم هذا ؟

أتى من خلفها صوت الدكتورة (إلهام) ، تقول :

ـ خطأ يا (فاطمة) .. لقد ناقشت أنا والدكتور (سليم) هذه النقطة بالذات ، ووجدنا أنه من المحتم أن يعود (فخر الدين) ، إلى زمنه ، ويسعى لإتمام مهمته ، وإلا فمن يدرى .. ربما تغير تاريخ العالم كله .

صاحت (فاطمة) فى حنق :

ـ لست أصدق هذا .

تحسس (فخر) شعرها فى حنان ، وقال :

ـ الوداع يا (فاطمة) .. الوداع يابنة الزمن القادم .

تفجرت الدموع من عينيها ، وهى تهتف :

ـ لا ترحل .. أرجوك .

ولكنه ربت على خدها لحظة ، ثم أبعد يدها عن ذراعه فى رفق ، وألقى عليها نظرة أخيرة ، ثم اتجه فى حزم وحسم إلى خارج الكابينة الزجاجية ، ووقف عند جذع الشجرة ، والدكتور (سليم) يقول :

ـ استعدوا لتكرار التجربة .

سالت الدموع من عينيها غزيرة ، وهى تتطلع إليه ، وقد وقف عند جذع الشجرة صامتا ، جامدًا ، ممشوق القوام ، ينتظر سقوط صاعقة أخرى ، وسألت الدكتورة (إلهام) ، التى تقف إلى جوارها :

ـ هل سيعود بالفعل ؟

أجابتها فى خفوت :

ـ أتمنى هذا .. لو نجحت التجربة فسيعود إلى نفس اللحظة ، التى قفز فيها إلى زمننا .

وفجأة انتزعت (فاطمة) من جيبها ذلك المظروف المنتفخ ، الذى يحوى كل الأوراق والوثائق ، التى تدين (خيرى الجمال) ، وناولتها إلى الدكتورة (إلهام) ، وهى تقول بكلمات سريعة :

ـ سلمى هذا المظروف إلى النائب العام .

قالت (إلهام) فى دهشة :

ـ ماذا تعنين ؟

ولكن (فاطمة) لم تشرح ما لديها ..

لقد انطلقت فجأة خارج الكابينة الزجاجية ، فى نفس اللحظة التى صاح فيها الدكتور (سليم) :

ـ ابدأ التجربة .

وضغط المساعدان الأزرار ، و (فاطمة) تعدو نحو جذع الشجرة الكبيرة ..

وهب الدكتور (سليم) من مقعده فى هلع ..

واتسعت عينا الدكتورة (إلهام) فى ارتياع ..

وصرخ (فخر الدين) :

ـ لا يا (فاطمة) .. ابتعدى .

ولكن (فاطمة) ألقت نفسها بين ذراعيه ، وهى تهتف :

ـ سنرحل معًا .

وفى نفس اللحظة هوت الصاعقة ..

وتألقت الهالة حول جسديهما ..



ثم تلاشت ..

وتلاشى كل شىء معها ..

وصرخت الدكتورة (إلهام) :

ـ لقد تبخرا .

تنهد الدكتور (سليم) ، وقال :

ـ بل عادا إلى زمن (فخر الدين) .

صاحت به :

ـ ما دليلك على نجاح عودتهما ؟

ابتسم وهو يشير إلى بقايا المسدس الصدئ . قائلا :

ـ هذا .

وفهمت على الفور ما يعنيه ..

* * *

تطلَّع فرسان (ريتشارد قلب الأسد) الأربعة فى ذهول إلى جذع الشجرة ، حيث تلاشت الهالة الكثيفة ، واختفى معها (فخر الدين) ، وهتف بهم قائدهم فى صرامة :

ـ ما لكم تفغرون أفواهكم هكذا ؟.. لقد أحرقته الصاعقة .. هذا كل شىء .

ولكن فجأة عادت الهالة تتألق مرة أخرى ، وبرز وسطها (فخر)

و(فاطمة) ، فصهلت الخيول ، وتراجعت ، وصاح قائد الفرسان ذاهلًا :

ـ أى عبث شيطانى هذا ؟

واستلَّ الفرسان سيوفهم مرة أخرى ، والقائد يصيح بهم :

ـ اقتلوهما .. اقتلوا هذا الشيطان ورفيقته .

وانقض الفرسان الأربعة على (فخر) الأعزل و(فاطمة) الضئيلة الجسد ..

وانتزعت (فاطمة) المسدس من جيبها ..

وأطلقت النار ..

وسقط أحد الفرسان الأربعة صريعًا برصاصتها ، وصهلت الخيول مرة أخرى ، وصرخ أحد الفرسان :

ـ إنها ساحرة .

ومع قوله ، أطلقت (فاطمة) رصاصة أخرى ، أطاحت بفارس ثان ، فجذب الفارسان الباقيان عنانى جواديهما ، وانطلقا فارين فى هلع ، وقد وقر فى قلبيهما أنهما يواجهان ساحرة ، تسبغ حمايتها على (فخز الدين) ..

واندفع (فخر) يمسك عنانى الجوادين ، اللذين لقى صاحباهما مصرعهما ، قبل أن يبادرا بالفرار ، ثم التفت إلى (فاطمة) ، هاتفًا :

ـ ماذا فعلت أيتها الحمقاء ؟.. لقد فقدت عصرك إلى الأبد .. ستندمين أشد الندم .

قالت فى سعادة :

ـ لن أندم أبدًا .. لقد عدت إلى زمن الفرسان ، الذى أحلم به منذ صباى ، بصحبة فارس مغوار ، لا مثيل له فى كل العصور .. مَنْ مِنْ نساء الأرض أسعد حظًّا منى ؟

ابتسم فى حنان ، والتقط المسدس من يدها ، وهو يقول :

ـ ولكنهم لا يستخدمون أسلحة النار هذه فى عصرنا .

واتجه فى هدوء إلى جذع الشجرة ، ودفن المسدس عنده ، ثم اعتدل وقال :

ـ الآن أكمل المهمة .

وحملها ليضعها على متن جواد ، وهى تغمغم فى سعادة :

ـ لست أجيد ركوب الخيل .

ابتسم وهو يثب على متن الجواد الآخر ، قائلًا :

ـ سرعان ما تتعلمين .

تبادلا ابتسامة رائعة ، قبل أن ينطلق الجوادان ، ويواصل الفارس مهمته ..

وبنجاح .

تمت بحمد الله

أجوبة (اختبر نفسك)

١ - ابن النفيس .
٢ - الفاكسميلى .
٣ - أبوللو ١١ .
٤ - الجينات .
٥ - بودابست .
٦ - ابن المقفع .
٧ - عظامى .
٨ - العاصفة .
٩ - الجيولوجيا .
١٠ - بيير دى كوبرتان .
١١ - على ابن أبى طالب .
١٢ - نجيب الريحانى .
١٣ - عباس العقاد .
١٤ - الفارما كولوجيا .
١٥ - ١٩٣٩ م .
١٦ - ابن منظور .
١٧ - إسحق نيوتن .
١٨ - قذف الجلة .
١٩ - النجم القطبى .
٢٠ - ناجازاكى .



رقم الإيداع : ٥٠٠١ /
١ - ٣٢٠ - ١٦٣ - ٩٧٧

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

فى هذا الكتاب

الثمن فى مصر ١٥٠ ص
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم